# ليل الغِوَاية

رفيق طيبي

# ليل الغِوَاية

رواية

دار خيال للنشر والترجمة ©
تجزئة 53 قطعة. رقم 27. بليمور
برج بوعريريج – الجزائر–
0668779826
Khayaleditions@gmail.com
ردمك : 978-9931-738-51-0
الإيداع القانوني : السداسي الثاني 2019.

**إلى ديهية لويز**

# توضيح

كتب هذا النّص روائي مغمور يدعى حميد باسي. رحل سنة 2017 إثر حادث مرور مروع وهو في طريقه إلى مدينة أدرار الّتي كان يمارس فيها عزلات مؤقتة.

كان قد بدأ الكتابة سنة 1995ولم ينشر أعماله خوفا من الإرهاب والرقابة. التقيت به قبل وفاته بأشهر وسلمني مخطوطه الّذي كان عنوانه الأصلي "ثلاث نساء" وقد وجدت فيه فراغات كثيرة وأعطابا سردية حاولت قدر المستطاع تصليحها، ثم فوجئت برفض عائلته كليا لنشر أي عمل من أعماله بزعم أنها تتنافى والروح الصوفية الّتي تعرف بها، عرضت عليهم تحرير المخطوط وتخليصه مما زعموا أنه مضاد لرأس ماالهم الأخلاقي، فرضوا بشدة. غيّرت العنوان لأسباب فنية وغامرت بنشر الرواية واسمي على الغلاف ليس إلاّ تمويها.

في هذا النّص روح حميد باسي، المتمردة، المحلقة والمعانقة للإنسان في أكثر لحظاته الحميمية، وفي نشر الرواية بعض الوفاء لصداقة لم تخفت يوما، ولم تتعثر حميميتها إلاّ بموت شكل محطة تحولت فيها المحبة من لحظة راهنة إلى أبدية مفتوحة على التذكر والحنين.

**رفيق طيبي**

ورغم كل شيء كنت أخاف النساء الطيبات لأنهنّ في النهاية سيبحثن عن روحك، ولقد أردت الحفاظ على ما تبقى مني.

**تشارلز بوكوفسكي**

رأيت امرأة ميتة يوم أمس. وكانت تتنفس مثلنا! ولكن كيف تموت امرأة؟ وكيف تراها تحتضر؟ تموت إذا فارقت وجهها الابتسامة. إذا لم تعد تهتم لجمالها. إذا لم تتمسك بيد أحد ما بقوة وإن لم تعد تنتظر عناق أحد وإن اعتلت وجهها ابتسامة ساخرة إذا مر عليها حديث الحب. نعم هكذا تموت.

**غابرييل غارسيا ماركيز**

رُحماك يا إلهي بالأشخاص الّذين يعيشون على التخيل.

**جوزيه ساراماغو**

**إذا استطاع أحد أن يلتقي بهذه الشخصيات فهي حقيقية وإذا تعذر اللقاء فستبقى محض خيال!**

تتماشى الأحوال الّتي أعيشها في هذا الظّرف غير الطّارئ مع سيرة كثير من الّذين عرفهم التّاريخ أو بالأحرى عرّفوا أنفسهم تاركين حكاية أو أسطورة صلحت للحكي مدة ما.

وقد رأت الأجيال اللّاحقة في أخباري وقصصي ما يمكّنهم من ترقيع حاضرهم، فجعلوا ممّا كتبته حروزا يردّون بها الشّر، ويضمرون داخلها مخاوفهم وضعفهم من قوى لم يسبق أن رآها أحد. ففي هذه المدينة شاع وجود عين لامّة تشمل مَن تُسوّل له نفسه إبداء ابتسامة. ولأّنني عُرِفت بالتائه، ولعنني مرارا رجال الدين والمعتكفين وصلّاح المدينة، فقد قهقهت ثلاثين مرّة في يوم، وواجهت الشّفاه المتدليّة والأعين الناظرة إليّ شزرا وتحديتها بإظهار ضرس العقل، وأسنان ترسّخ عليها أثر الجعّة، وجعل اصفرارها شبيها بالشّمس.

امتصّني عناء القهقهة، فاستلقيت منتظرا نوما لم يأت. توسّلت قنينة أخيرة أن تُلقي ما بجوفها لكن شحّ فمي جففها قبل يوم، والخروج ليلا سيهدّد حياتي مادام الظّلام يتيح لمن هبّ وسبّ أن يوجه لي ضربة عصا أو

حجارة قد تكون قاضية لأسباب تتعلّق بالسّخرية وكثرة الضحك.

يتوحّش الفجر ويتأخر. يصير حلما حين ترصّني مخاوف الموت وحيدا، فأتخيّل وفاتي غريبة ومتفسّخة من طقوس كبار القوم، حيث أقبر بعد صلاة الفجر، ولا يشيّعني الاّ السّعيد الإسكافي الّذي تحمّلني لسنوات مثل حذاء نتن، بما سردت عليه من خبل، وبما حمّلته من كآبة مدينة بائسة، تجاورها تعاسات جغرافية تثقلني بالحكايا.

الثّالثة صباحا:

قرقرة يليها صوت قصدير يُسحق. أدفع برأسي من نافذة مكسورة لا تتسع لعينيّ المتجسستين كعيني عجوز النّحس الّتي ماتت قبل أشهر وتوقفت إثر ذلك تجارة (الشمّة) التي ازدهرت بفضل غمز كنّتها للشيوخ القادمين من الأحياء المجاورة والدواوير البعيدة.

أفتحها لأرى الحي مضاءً بعمود بعيد ومائل. تلمع عبوة مسحوقة، وتتطاير الحمّى نحو السقف. أحسّها تغادرني، ويتوقف دبيبها عن قرع المفاصل.

أخرج إلى الشارع. أحملق يمينا وشمالا. أحمل العبوة بحثا عن قطرات، فلم يخيّبني حدسي. أشمّها بعمق. تندفع رائحتها نحو أعماق الرئتين، فيتبخّر منهما الضّجر. أعود إلى فراشي المشكّل من أكياس السّميد الفارغة وحنبل قديم تركته أمّي قبل رحيلها منذ عشرين عاما.

عزمت على الكتابة عشر مرّات، وحملت القلم خمس مرات وخربشت مرتين، وما كتبت إلاّ أحرفا! أمّا بقية الوقت فقد بدّدتها في التذّكر والتبرير. أتماهى مع كبّة سؤال يعرّيني فأواجهه بأمل الكتابة عن حياة مجنونة قضيت فيها ستين عاما هائما في مدن ووهاد، وتعرّفت خلال تيه لاصقني ويئست من التحرّر منه بعد أن لقبت بـ"التايه" على صنوف من البشر، وسمعت حكايا الحانات والأقبية والحدائق والأسواق، وجمعت ما يكفي لكتابة ألف نهار ونهار. فالليل سكّير يطرق بابي وما سمعت منه الاّ القليل.

الحمّى زائرة ليلية مذ انفجرت قهقهة بمدينة الكآبة. تعمّقت فيّ الأعين ولعنتني أفواه لم تبتسم منذ سنة على الأقل.

لم يُغفر لي ما كتبته قبل سنين من قصائد غزليّة لقيت رواجا عند مارقين من شباب المدينة لم يكفروا بالعشق ولم يعتبروه فسوقا رغم أنّهم حوصروا، وتنبأ لهم نفر من العقلاء بتيه أبدي وتورّطاتٍ لا حدود لها، خاصّة بعدما اكتشفوا أنّ فتيات المدينة، وتحديدا ثلّة من بنات أثريائها وقعن في سحر هؤلاء المارقين!

ولأنّهن بنات الوجهاء لم يتجرّأ وجوه القصدير على التفوّه بكلمة. ورضوا بلعني وحيدا واعتباري زنديقا محقّرا بتهمة النتانة والشّعر.

وقد تضاعف خطر الأشعار بعد تهوّر الشّباب وقيامهم برقنها على ورق صلب وحفر أعلاها بمسمار وجمع الأوراق بخيط رفيع من الفضّة وتعليقها على الصّدور. واختلطت تفاسير توافِه المدينة، فمنهم من اعتبر الفضّة رشوة قيّمة للجن كي ينفذ وصايا "التايه" حرفيّا، والمدوّنة بجديّة كبيرة على الأوراق الصّلبة ومنهم من اعتبرها أشعارا مبتذلة لكنّها قادرة على كسر المهابة، وتشريع كتابة الشّعر للبنات ممّا قد يسبّب الحبّ

وهذا أخطر ما يمكن حدوثه على الإطلاق في مدينة الكآبة.

وممّا يثير الحيرة في مدينة مذهولة مايحكيه شبّان اعتادوا المرور على حي المعدومين المسمّى بهذا الاسم إثر سقوط عدد من المجاهدين إبّان ثورة التّحرير بغيّر الرّصاص، حيث ماتوا فجأة بعد وجبة عشاء سريّة دعاهم إليها الجدّ الأكبر للشّيخ الحسناوي السّاكن إلى غاية اليوم بالحيّ نفسه، وتباينت التّفسيرات وقتها بين اختراق الجيش الفرنسي لتلك الجلسة، وتسميم العشاء وبين عين مالحة أصابت المجاهدين بعد نقاش طويل بانت فيه قدراتهم الثّقافيّة ومحصلاتهم في علوم الدّين، كما سردوا على الجدّ الأكبر للحسناوي بعض بطولاتهم في معارك دارت بجبال بعيدة، واستمرّت لأيام، أمّا المفسّرون الأوائل لسبب الوفاة الغريبة لهؤلاء الأبطال فقد زعموا أن دورية سريّة زارت المكان قبل العشاء بيومين وكانت مطلعة على كل التفاصيل. غير أنّ هذا الرّأي قوبل بالسّخريّة من نفر العقلاء الّذين لم يتقبّلوا إطلاقا شتيمة مُرّة لحقت بهم وأوصلتهم باعتبارهم

المسؤولين عن المدينة إلى التّهديد بالقتل من طرف المجاهدين لو يثبت تورّطهم في مقتل المجموعة، أمّا الّذين برّروا الوفاة بعين الجدّ الأكبر للشّيخ الحسناوي واسمه الحملاوي (حسب مقرّب من العائلة يبلغ من العمر مئة وعشرين سنة، إذ يتذكّر أنه رآه آخر مرة حين كان يدخل المسجد لحفظ القرآن الكريم وهو في سنّ الخامسة) زعموا أنّه أوّل من سنّ هذا التّقليد في مدينة الكآبة، ويعتقدون أنّ تعاسة المدينة تعود إليه بدرجة أولى فقد كان محاربا بعينيه، وكل ما يزعجه ويتمنى هلاكه يقوم بالتحديق به مطولا، ثم يتوهّم الإعجاب به، فيصل خبر هلاكه بطريقة غير معقولة لم يتخيلها أعتى الرّواة!

ولأنّ الشّيخ الحملاوي كان يتوق ليكون إمام المدينة فقد دخل زاوية الصّادقين الواقعة جنوب الجزائر، وبعد سنوات خرج مطرودا، فعاد ساخطا وناقما على كل ما يرتبط بالدّين من علوم ومعارف. وما ضاعف وجعه إرسال الزّاوية للشّيخ لُمَهَنّي ليكون إمام المسجد. وقد رحّب به سكان المدينة بحفاوة، وأقاموا له بيتا واسعا وعرضوا عليه الزّواج من مريم بنت الحاج أجمل نساء

المدينة الّتي خافت الاقتران بمن ينتمي إلى مدينتها رهبة من عدوى الكآبة الّتي تفاقمت في تلك السّنوات.

ولأنّ الشّيخ لمهني وافد جديد لا يحمل أيّ عدوى فقد فرحت مريم وانتظرت قبوله، لكنّه خيّب أمل أهل المنطقة وخيّبها، فقد اختاروها متعمّدين إغراقه في دلعها ونشواتها كي لا يفكّر في ترك المسجد أو الرّحيل بعد التّعرّف على أحوال المدينة وكآبتها الّتي طردت الغرباء.

كشف الشّيخ لمهني للقائم على المسجد الّذي اعتُمِد بعد مشاورات معه ومع الأعيان الّذين شهد لهم الجميع بحضور صلاة الفجر والعشاء، وعدم التحجّج بالبرد والجنابة، أنّ معرفته للحملاوي قديمة، وأنّهما قد تشاركا حياة الزّاوية الصّحراويّة.

فضول رئيس اللجنة الدينية لم يفوت عليه فرصة التساؤل عن سبب طرده وعجزه عن حفظ كتاب الله والعودة إماما كما توقع الجميع. احمرّ وجه الشّيخ لمهني وصمت رافضا منح تفاصيل تلك المرحلة. لكن سي[1]

1 اختصار لكلمة السيد، تستخدم قديما في العامية الجزائرية كلفظ للتوقير.

المحفوظ باعتباره خبيرا في شؤون التجسس والتحسس قبل أن يصبح قيّما على المسجد استخدم قدراته للضغط على الشّيخ لمهني ملحا عليه لرفع التحفظ باعتبارهما صارا صديقين وقد حلف أمامه بستار الكعبة وشباك الرسول ورأس سيدي الجيلالي أن يُبقي كل ماسيخبره به سرا أبديا لا يسمع به أحد.

بعد تردّد وخجل باح الشّيخ لمهني لسي المحفوظ بكلّ شيء. ومما جاء في معرض هتك سر الشّيخ الحملاوي أن أحد مريدي زاوية الصادقين كان يشعر كل ليلة بالحنبل يعلو وينخفض، ويسمع همهمات غريبة احتاجت تركيزا لمعرفة مصدرها الّذي كان صادما.

الشّيخ الحملاوي كان يبذل جهودا أقل من الآخرين في الحفظ، فلا يسقط تعبا كبقية المريدين! ينتظر نوم الجميع ليغرق في الاستمناء، ثم يستيقظ صباحا متأخرا ببعض الوقت عن زملائه منتظرا خروجهم إلى بيت الوضوء، ليقوم بتوضيب الحنبل وعرضه في مكان تصله أشعة الشّمس الّتي تخلّصه من النتانة.

وشى به المريد المستاء إلى أحد القائمين على الزّاوية فلم يصدّقه في البداية، وقرّر التأكد. بعد ليلتين من الترصّد دون جدوى. انتظر المريد اللّيلة الثّالثة، ومع بداية الحركة نهض بهدوء حافيا، وفور خروجه إلى الرّواق هرول لإيقاظ معلم القرآن الّذي سبق أن حدّثه عن الظاهرة.

سحب المعلم الحنبل بقوّة في الوقت نفسه الّذي أشعل فيه المريد مصباح الغاز، فهلع النائمون متمايلين برؤوسهم ومتسائلين عمّا يجري.

طار الشّيخ الحملاوي فزعا محاولا تغطية عضوه المتهدّل الّذي قذف في تلك اللحظة، وتعال الصياح والهقهقة حد إيقاظ كل المتواجدين في الزاوية والّذين التحقوا من كل الأروقة صائحين: "واش كاين".

كانت تلك نهايته بعد سنوات قضاها يحفظ القرآن الكريم ببطء سلحفاة! وعاد إلى مدينة الكآبة بحقد لم يُعرف عنه سابقا، وحين اندلعت ثورة التحرير حلم بترميم ماضيه في الزاوية ونسيانه، فانضمّ إلى المجاهدين

الأوائل الكبار الّذين ينسب إليهم تفجير الثّورة والقيام بعمليات فدائيّة هامة.

وقد أعلن عن رغبته الجارفة في أن يصير بطلا محليّا ووطنيّا وعربيّا وقوميّا، وراسل العاملين سرّا في مجال تجنيد الأفراد لجيش التحرير، واطّلعوا على رغبته، وكان مقبولا التحاقه رغم كبر سنه نسبيّا مقارنة بالّذين خطّطوا ونفذوا أولى الهجمات ضد الجيش الفرنسي.

شرعت فرقة التّجنيد في التحقيق، وتمّ السّؤال عن الحملاوي في مسجد القرية، فردّ الشّيخ لمهني بعدم معرفته. لكن سي المحفوظ الّذي ضاعف إيمانه الدّيني في تلك الفترة عزّ عليه السّكوت عن حادثة الاستمناء خاصّة بعدما قرأ في كتب مشرقيّة وصلت عبر الحدود التونسيّة أنّ الاستمناء حرام إذ يعتبر زنا، ولم يستسغ أن يصبح الزّاني مجاهدا كبيرا وبطلا. ولأنّ الارتباط بين الجهاد والجنّة كبير فما وجد مبررا لتبديد معنى الجهاد خاصّة أنه قرأ في كتاب كلاما لفقيه محدث جاء فيه: "من دلك دلكة بيديه لم يرَ الجنّة بين عينيه"! لذلك لا يُعفى

الشّيخ الحملاوي من النار مادامت رؤية الجنّة حرّمت عليه باعتباره مدلكا قبض عليه متلبسا بالفعل المشين.

وشى به إلى السائل، ورُفِض التحاقه بالمجاهدين في أيّ منطقة، وشاع سبب الرفض بعد نسيان سي المحفوظ غير المتعمّد لتحليف السائل ألا يخبر أحدا، وعرف الشّيخ الحملاوي بأنّ إمام المسجد الشّيخ لمهني قد أفشى حكايته.

اغتاظ ومرض بحمّى حادّة ألزمته الفراش عشرة أيام. وقد زاره شخص أو اثنان، فوجدا حقده تضاعف واحتمال مقتله بسبب سمّه وارد.

منذ تلك الحادثة صار الشّيخ الحملاوي خطرا، فقد قتل الإمام بعينيه بعد أن أوهم قلبه بالإعجاب به، فمات مختنقا بالطعام. وأمّا سي المحفوظ فقد فرّ هاربا نحو مدينة أخرى، واتّهم بقتل المجاهدين الّذين لبّوا دعوة العشاء لتعلّقه سابقا بالالتحاق بهم. وتوارثت عائلة الحملاوي ملوحة العيون، فصاروا خطرا لا يعبر حيَّهم إلاّ محتوم يكون قد تطهر ووضع التعاويذ الكافية لحمايته.

ولأنني "تايه" وقانع بهذا اللقب، فقد شربت ما يكفي للمشي يومين متتاليين في شوارع المدينة وما جاورها من شعاب، وفي عزّ النّشوة مررت على حيّ المعدومين الّذي يتحاشاه سكان المدينة، ويرون في الوجود الدائم للشيخ الحسناوي على قارعة الطّريق مصدرَ خوف وقلق.

استمرّ ينظر إليّ وأنا أحييه دون أن يرد، استفزه ثقل صوتي الّذي عرف من خلاله أنّني مخمور، وهذا مبرّر قوي كي لا يرد أو يشتمني.

اقتربت منه ببطء. حاولت تقبيله فدفعني بضربة صارمة من عصاه على البطن، فاندفعت الجعة وما أكلته البارحة فجأة، لقد تقيأت على برنوسه!

تطاير من عينيه حقد جيلين يمتدان إلى جده الحملاوي، ورمى البرنوس مسدّدا العصا باتجاهي فهربت، فتبعني بعينيه إلى نهاية الحيّ، وتفوّه بعبارات لم أفهمها.

عدت إلى البيت متعبا ذلك المساء، وقد انثنيت عن التّجوال يومين متتاليين من النوم المأثّث بالكوابيس

والرؤى العجيبة، وحتّى لم أستطع الاستيقاظ من صهدها، وقد رأيت أنني أرمى في جهنّم ممسوكا من الشّيخ الحسناوي، وجدّه الحملاوي الّذي تخيلته طويلا شديدا أسمر البشرة.

فطنت مفزوعا وشممت ريحا كريهة. لامست جسدي فوجدت البثور تغطّيه! كانت حمراء فاقعة ما إن حككت إحداها حتى ثار جسدي كله وتتالت الرّعشات.

لعنة الشّيخ الحسناوي لفّتني بهذه الحبوب الخطيرة كان أول وآخر تفسير وصلت إليه بعد حيرة.

وجع استمرّ أسبوعا اكتفيت فيه بشرب الماء وتبليل خبز جاف، واعتباره وجبة جيدة لا تكلّف عناء الخروج والبحث. وفوجئت في اليوم الأخير من انتظار حدث ما يغير هذا الوضع بزيارة السّعيد الاسكافي. لقد قفز من النافذة حين تحسّس صراخا مدويا أطلقته لما سمعته يطرق الباب وعجزت عن القيام لفتحه. فوجدني ممرغا في الأدران والوحل بفعل مياه متدفقة من حنفية نسيت إغلاقها قبل السّقوط في نوم خلته أبديا.

اتصل فورا بجمعية أحباب المرضى واصفا حالّتي بدقّة، حضروا خلال نصف ساعة حاملين وسائل التّنظيف ومواد غذائية وطعاما جاهزا ومنظفات طبية وجراحية، وقد وجدت في رجالها ونسائها القادمين من مدينة السّعادة كلّ الخير.

بعد نصف يوم من النّظافة والمعالجة الشاملتين، طلبت من السعيد الإسكافي التقدم نحوي سارّا له بحاجتي للشرب. جلب لي نبيذا أبيض مسكوبا في قارورة مخصّصة لشراب الليمون. كان مفعولة قويّا، إذ جعلني انهض وأمشي خطوات محاطا بابتسامات أعضاء الجمعية والسّعيد الاسكافي الّذي سرّه أن يعينني في ظرف حرج جدا.

بعد انتهاء المهمّة، خشيت على أعضاء جمعية أحباب المرضى من اعتداءات سكان المنطقة إذا عرفوا بمساعدتهم لزنديق، فقدومهم دون ترخيص من عمدة المدينة الأكثر كآبة في تاريخ الجزائر يعتبر مساسا بحرمتها وهذا ما لم يحسب له السّعيد الاسكافي خاصّة وأنه يعلم أن جمعية أحباب المرضى عاهدت على عدم ترك

المحتاجين للمساعدة في أي ظرف ووقت. لذلك فكرت في ضرورة بقاء أعضاء الجمعيّة وقضاء اللّيلة في بيتي المتهرئ إلى غاية الفجر، حيث سيمكنهم السكون العام من الخروج بهدوء.

رحّب أعضاء الجمعية بالفكرة وافترشوا أغطية كثيرة أحضروها ظنّا أنّي صاحب عائلة قبل أن يفاجئوا بي وحيدا. توسّطتهم بما أنّي كبيرهم وأسندت ظهري إلى الجدار.

حضّروا الشاي وفتحوا علبة حلويات كانت ضمن المساعدات وانقسموا في الغرفة الضيقة، جهة للذكور محمد وصالح وجهة للبنات سهام وسوسن. أمّا السّعيد فقد وجد مهمّة غلق الباب بظهره مريحة، تقيه قرب البنات الّذي يخجله، ولو كانت المسافة كافية لعدم شمّ مئزره الملّم بتاريخ نتانة أقدام أهل المدينة الكئيبة وقرفها. فمنذ عشر سنوات أصرّ عليه أن يستبدله أو يغسله على الأقل دون جدوى. وتضاعف إلحاحي وصرت لجوجا حين شكته زوجته "لالة رقية" إلي بملامح محبطة تماما من تغييره، لتخلعه بعد ذلك بشهر إثر نوبة يأس.

صمت الجميع، ونظروا إلى بعضهم غير مقتنعين بضرورة النوم مبكرا. وفي ظرف استثنائي شعرت بأنّ مراسيم المواساة ستنطلق إذا لم أتكلم أنا أو السّعيد الاسكافي الّذي نظرت إليه مطولا، فما وجد حيلة ليسألني خفية عما أريد، لكنّه أدرك أن الجلسة بحاجة لمنشط يرفع حرج التّعارف وكلام البدايات بما فيه من سطحية وثقل.

نطّ السّعيد مختصرا الوقت، فتنهّد وتنحنح. ظننته فهم الإشارة، لكنّه خيبني بأوّل جملة (هل سكرت؟).

لم أرد. ابتسمت مع الشّباب صارفا أسماعهم عن كلام السعيد الاسكافي الّذي جلب الشّراب في قارورة ليمون ثم فضحني بسؤال لا يمت بصلة لشيء عدا البلادة.

وزّعت سهام الشّاي فمدّ السّعيد يده إلى علبة الحلويات وهو ينظر إليّ ربع نظرة مخافة السّقوط في رعونة جديدة، فقد أشعره تجاهلي لسؤاله عن السّكر بالخطأ.

بعد نصف ساعة من الأحاديث الجانبية بين سهام وصالح ومحمد وسوسن ونظرات ضجرة بيني وبين

السّعيد الاسكافي، بدأ التثاؤب يتوزع رغم جودة الشّاي الصّيني. لكن البيوت المتوحّشة كبيتي لا تصلح للسهر ولا للنوم. إنّها محطة بينهما. أرق وسهاد!

منتصف الليل، تزحلق الجميع تحت الأغطيّة. ظننتهم ناموا حين سمعت حشرجة تشي ببداية شخير أحدهم.

لحظات وارتفع الغطاء. رأس سوسن مطلا عليّ مستغربة بقائي مستيقظا رغم المرض وتعب الأيام الفارطة. سألتني إن كان هناك ما يمنعني من النوم فرددت بعفوية لا يا بنتي.

فتحت جرحي بيدي، فتذكرت حلم الزواج وتكوين أسرة قبل أن يتبدّد منذ عشرين سنة.

ـ أحكيلي عمّي!

"عمّي" لم أسمعها منذ دهر ونيف. لقد هزّتني. نسيت دفء الكلام، وتعوّدت على التايه كأقصى احترام بامكاني الحصول عليه في مدينة تلعنني وترميني بالجنون.

عدلت جلستي، ابتسمت، ووددت لو أقبّل سوسن أو أضمّها ابنة لي طالما حلمت ببنوتها. لكن الفقر صيّرها هباء.

كثيرة هي قصص الستيني يا سوسن، حزمة لا يسهل فكّها، قد تتبعثر وتبعث من الأشجان ما لا تكفي الليالي لتهدئته.

أيقظت وشوشتنا الآخرين الّذين كانوا على حافة النوم.

تحالفوا على ضرورة سماعي، واكتشفت أن السّعيد الاسكافي قد حدّثهم عن رحلاتي وتيهي حين كنت مستلقيا أرقب التّماثل للشّفاء، وكان يساعدهم في تنظيف البيت وترقيع ثقوب جدرانه.

قررت غير مبالٍ بما يمكن أن يحدث حين أستعيد ذاكرتي أن أحكي لهؤلاء الشبان. ماذا تفيد ذاكرة مخبوءة تتآكل بفعل الخمر والزّمن والمآسي؟ أريَح طريقة للحكي أن أجعل لكل شخص حفرَ بداخلي واقتطع من وقتي وقلبي مساحات وقتا لأسرد ما عرفته خلال المتبقي من ليل ينبئ بتمدّد الحكي، سوف أستحضر أناسا عرفتهم خلال العشرين عاما الأخيرة، فلم تفارقني ظلالهم ولا أرواحهم الّتي تلخّص كبرى الانكسارات الإنسانية ففي العقدين الأخيرين صرت أقلّ قوّة من تحمّل السّفهاء

وإذا سمعت قصصهم نسيتها، وانخرطت بقلبي وحواسّي في قصص فيها من الجسارة في حبّ الحياة والإيمان بها ما يجعلني أتوقف مطولا. وفي هذه الليلة سأختار شخصيات تشابهت في تحمّل الحياة والتماهي مع خياراتها المجنونة، وذهبت إلى الحدود القصوى للمغامرة متخطيّة الكثير من الأسلاك الشّائكة الّتي عرقلت الآخرين الّذين عرفتهم ولم أفكر في سرد حكاياهم على أحد. فلا جدوى من فتح أذن وقلب المستمع لشحنها بإجهاضات، وعُقَد لم تترك الحكاية تكتمل. فقد آمنت دوما أنّ القصص العظيمة لا تخرج إلاّ ممّن ترك البالي من الأحكام والتقاليد جانبا وانطلق صوب الحياة بخطى لا يوقفها شكّ. وهذا ما فعلته نماذج اخترتها من بين مئات الحكايا، سأحكيها بروح مفعمة بالاشتياق والخوف من النسيان، فاللواتي التقيت بهنّ من النساء ووثقن بي بسرعة، اشتركن في وصاية واحدة سمعتها من صبيرة وهيام ومديحة، اللواتي اخترن أن يكن نموذجا لحياة لا تتوقف معاركها وقد تعهّدت بنقل تجاربهن إلى الآخرين.

يستحق هؤلاء أن يتمدّد اللّيل أكثر، أن ينصهر نهارنا في الحكاية لنعرف ماذا بإمكان النّسوة أن يفعلن، فمديحة وهيام وصبيرة وكل من سأتذكرهن، لسن ككل النساء. سأستحضرهن لأمجدهن، أو أبكي بُعدَهن أو أذم غيابهن. لا أدري! فما أعرفه الآن هو حَاجتي إلى الكلام وخيوط النبيذ قد تشابكت لتضيء الذاكرة، فهل يعقل أن تمرّ ليلتنا دون ارتجاج للروح يجعلها تحلّق أمام فتية وفتيات تحالفوا على ذاكرة لن تخذلهم أبدا.

# صــبيرة

لم يخيّرني أحد بين الانضمام إلى جماعات إرهابيّة تتحصّن بجبال شلعلع في باتنة، وبين طرق الباب الكبير لملهى لاماركيز. كانت رغبتي!

فرق وحيد بين الخيارين: دعارة الملهى يبرّرها الفقر أمّا داخل الجبل فتبرّر باسم الدين. والملهى لا يعد بشيء سوى ثراء مؤجل قد يخرجني منه إلى الأبد، والجبل يعد بالجنة بإسعاد القتلة، وانتظار قيام دولة دينية تسجنني في البيت وتربطني برجل أكاد أسجد له وتغلق عيونا سحرت جبابرة المال والسّياسة الّذين مرّوا على لاماركيز[2] شتاء 1997.

يصفني بدوي قادم من العطّاف باللبّة[3] وهو ينظر إليّ في أول سهرة داخل البار. أجلس يمينه. يسحب حزمة أوراق مالية، ويدسّ بين نهديّ 500 دينار. ثم يحيطني بها حيثما وجد إمكانية بقائها ظاهرة ليتبجّح أمام السّاهرين بثراء يبدو طارئا عليه، ويغري بقيّة النّساء بالالتحاق به في

---

2 La marqueze ملهى اشتهر شرق الجزائر (تم إغلاقه منذ سنوات)

3 اللبؤة

سهرات قادمة، والاحتكاك بحقيبة مالية توفّر إمكانيّة تحمل رائحته.

"اللبّة يا اللبّة" يقولها وفي عينيه تطاير لشبق يعرّيه بزاق ينسى ابتلاعه، فيتركّز على مضائق فمه ذي الأسنان المعدودة .

ضجر فوق طاقة وافدة جديدة لملهى يشبه بنكا من شدّة توفّر العملة، والموظفين الكبار، وساسة يديرون مؤسسات رسمية.

اللبة!

صدرٌ منتفخ وعيون تضيق كلما ابتسمت كأعين الصينيين، وأرداف شاسعة تلامس الجالسين على طاولات سهراتنا. معايير الجمال تختلف كلّما زاد التّعرّي تضاعف الانجذاب وخارج الملهى أوصف بالبقرة. مفارقات السّكارى!

مستسلمة لقرف ورتابة يوميّة. تماديت في حب الحياة وحلم جمع ما يكفي من المال للخروج من قبو يُلحق بي هزائمَ متتالية. نوم النّهار عذاب مفتوح على ذاكرة أمي المتوفاة قبل سنتين في حادث مرور، أستعيدها خلال

كسلي وتقلّباتي في الفراش أكثر من أي وقت، أتذكّر وصاياها وحبّها للجمال ونقاءها فأحزن. ذاكرة محملة بعصافير وشمس توصيني باستقبالهما باكرا بصلاة الفجر. فريضة قاسية تحرِّمها عادة سرّيّة ألفت ممارستها كلما أرقت.

صارت لي عادات شهريّة اتخذّتها ذرائع لترك الفرائض الدينيّة. فهي أفضل الحجج وأصدّقها حين تصرّ أمّي على صيام الاثنين والخميس عملا بالسّنة النّبويّة. كانت مقولة جدّي تنبعث بداخلي فور طلبها المؤازرة بالصّيام: "من حبّك يا رمضان، نزيد نصوم عواشيرك" مثل شعبي يجسد نظرتي لعبادة تؤرقني، وحين تنفد حججي وتصير العادة الشّهريّة كذبة مائعة أدّعي الصّيام، وأخرج لأتغذى.

حياة روتينية جمّلتها أمّي بشساعة صدرها وحكمها وقد منحنا معاش أبي راحة متوسطة تقينا التسول.

رحل أبي ولم يترك لي ذاكرة شخصية. غير أني شكلت عنه صورة جيدة من خلال ما سمعت طوال عقدين عن نبل خصاله. وقد شكّلت وفاته صدمة عميقة لكل من

عرفه. فلم يكن معقولا أن يدهسه قطار في السكة الحديدية الرابطة بين مدينة مسيلة وسطيف وقد عمل بها خمس عشر سنة.

تعودت اليتم واصطحبت جارنا عمي عز الدين في مواقف تطلبت الأب. كان وقورا بربطة عنق دائمة ومحفظة تكتظ بكتب سيد قطب وحسن البنا، يطرحها على طاولة أيّ بيت يدعى إليه أو مؤسسة يصلها. يمسك بعضها بيده زاعما أن المحفظة لا تسع ما يقرؤه في أسفاره ورحلاته.

كان الاطّلاع في الثّمانينيّات على تلك العناوين والحديث عنها مفخرة في عزّ صحوة إسلاميّة اجتاحت الجزائر، وجعلت النّاس في انتظار حالم بأن تقوم دولة جديدة.

بعد سنوات أتذكّر أستاذا جامعيّا جاء إلى لاماركيز مثقلا بالمتاعب. شرب نبيذا وارتخى على كرسي. كنت في صحو وصفاء حين مدّ يده إلى فخذي في إشارة للاقتراب.

وضعت يدي على خده فاحمرّ. عدّلت جلستي واقترحت كأسا إضافيّا. طرحت عليه سؤال الصحوة الإسلاميّة مستعيدة عمّي جيلالي المقتول على يد جماعة أعلنت ولاءها لمصطفى بويعلي أوّل منادي بالجهاد المسلّح ضد الدولة الكافرة بزعمه.

قلت في معرض الحديث: ما رأيك في الصحوة الإسلامية؟ سرّح ضحكة نبيذية عمّقت فضولي ولخّصت انتظار الجواب بضغط على يده وقول ودود: هيا أجبني.

أية صحوة يا بنتي؟ هل كنا نائمين؟

اختصر الأسئلة باحتكاكه بي. لفّني برغبة عارمة سميتها لاحقا في جلسة سمر "الرّغبة الثّقافيّة".

شخصية المثقف تثيرني لسببين: يتعلّق الأول بأبي الّذي عرفته بكتب تركها تدلّ على اطّلاع واسع. والثاني يرتبط برغبتي في أن أصبح مثقفة قبل مواجهة واقع قطع المسالك المؤدية إلى حياة الكرامة ورمى في وجهي شهادتي الجامعيّة في علم النفس. فلم تمنحني منصبا صغيرا يوفّر قطعة خبز تقيني ممّا أنا فيه من ظروف متأزّمة.

كل مساء أصنع ضحكة لسهرة جديدة ولزبون طارئ على البار، أمّا الدائمون فيطوفون على النّسوة ولا يعودون إليّ قبل شهر. منهم من أشتهي مجالسته وبعضهم يستوجب قربه خزائن من المال لأطيق فداحة رائحته، أو لعابه وهو يمدّني بقبلات ويطلبني للسرير.

طويل نهار لاماركيز. نومه الثّقيل يجبرني على عناية خاصة ببشرتي للتخلّص من الهالات، عيوني تنتفخ مساء وتعود جاذبيتها قبل افتتاح السهرة بساعة. ينظر إليّ صاحب الملهى باستغراب دون فهم التّرميمات الّتي أقوم بها لتختلف صورتي، وأنا أعبر الرّواق زوالا باتّجاه المطعم عن صورتي الليليّة، حيث أتقدم متأخّرة إلى الطّاولات متزيّنة بماكياج رفيع، فتلتفت العيون مشتعلة دون أن تقنعني أو تجعلني أؤمن بجمالي. هؤلاء. تثيرهم العجائز والصبيات والأحمرة. يجاملون كلّ النّساء عدا بعض رجال الدّولة الأثرياء الّذين لا يطلقون نظراتهم عشوائيّا.

الحلاقة تأتي نهارا. لا ألتقي بها مفضلة تسريح شعري بما خبرته من مشطات حديثة وكلاسيكيّة.

جلست إليها قبلا فمرضت. كيس نكد صبّته عليّ دفعة واحدة، قدامة جعلتها تتعمّق في أسرار ملهى معقد. عرفت عشرات النّساء اللواتي عملن هنا منهن الرّاحلات ومنهن من عجزن، وقد تمّ التخلّي عن خدماتهن.

تحكي الحلاقة عن مهالك العاهرات وتصرّ على قذارة عملهن وخطورته. تبجّح تضاعفه في حضوري؛ لأني قليلة التحدث إليها.

استفزازات بحكايا نساء حرقن أو قتلن، وأخريات عجزن فطردن إلى الشارع فقضى عليهن الزمن وابتلعهن الظل. عشرات عملن في البارات كانت نهايتهن مؤلمة طعنة أو ضربة قاضية، رصاصة أو جوع في مدن تعتبر موت عاهرة حادثة طبيعية يحقق فيها شكليا ويغلق الملف في ظرف قياسي دون البحث عن المجرم عملا بقول "تهنينا منها"

لا تتذكر المدن ظروفها حين ترتاح بموت عاهرة وقد تسبّبت في ذلك بأحوالها القاسية.

حين رأيت لبنى أبيضار[4] على قناة tf1 الفرنسية حزنت. تحدثتْ عن عرب غلاظ بمال وفير مقابل أوروبيين أقلّ مالا وأكثر رأفة. حلمتُ بوضع غير متاح لنا جميعا. مصير لبنى كان استثناءً كبيرا. تعيش حياة ممثّلة مشهورة، وتجد نفسها مؤمّنة اجتماعيا ومتحرّرة من شبح الغد.

امتهان الخارجات عن العرف طبيعيّ لما ترسّخه خطب تقبل على مضض، ويتحلق حولها الناس. العجائز اللواتي صليت معهن قبل دخول هذه الحياة القميئة، كنّ يستمعن بخشوع ويغرقن في لذّة استذكار مظاهر الطّاعة في نهاية الدّرس. كنّ يأكلن بعد الرّجال وليس معهم! يُضربن ويتنعمّن بالصّمت، ويسكتن كلما دخل رجل البيت.

تبدّدت تلك الظّروف، وتعلّمت المرأة وصارت شريكة. في الجامعة. كنّا أشدّ قدرة على النّقاش وأعمق

---

4 ممثلة مغربية من مواليد مدينة مراكش (1985 – ) اشتهرت ببطولتها بفيلم (الزين اللي فيك) الذي مُنِع عرضه بالمغرب (إخراج نبيل عيوش – 2015)

حضورا. فرضنا أنفسنا بعرق السّهر والاجتهاد، وانتهينا في البيوت ننتظر خطبة رجال تركهم قطار التّعليم في الابتدائيّ، والمتوسط، والثّانوي. تلك مأساة كثيرات في بلدان مثقلة بأرقام العنوسة والمطلّقات. صرنا نباهي بهم حين نقول: "لكنّه ناس ملاح[5]".لنرقع مستوى علميّ ضحل بالطّيبة.

كبرت الهوة لاحقا، واستقوى الجوع في مواجهة انتظار العريس، فاخترت هذه النّهاية، والغريب في الأمر أنّني صرت أسمع في الشّارع أنّ الذّكورة الّتي واجهت الفراغ قد تخطّت كل منطق، وصار الميكانيكي زوجا للطّبيبة، وأستاذة الجامعة زوجة لمساعد البنّاء. حمدت الله. مصير بائس يمنحني لرجال كثر أهون من الارتباط برجل بمستوى استعباديّ.

حياة مرهقة سببها اقتصاد متدهور لا يمنح للأفراد استقلاليّة ماليّة تمكّنهم من افتكاك الحريّة والكرامة بدل الصّبر. سنوات ثقيلة داخل لاماركيز. قبو بخمسة نجوم وأدخنة وبيرة وغيرها من مشروبات رسمت عليّ ملامحَ

---

[5] تعبير شعبي يوصف به الطيب والرزين.

ناعسةً تتجلّى كلما غبت عن البار. صارت عيناي ليليتين لا تألفان النهار بسرعة.

جاءت نهاية مشواري مفاجئة. عرض عليّ رئيس حزب "حركة الشعب الحر" الزّواج بعد سهرة ماجنة احتفلنا فيها برأس السنة، ومضينا نحو غرفة بالطّابق الثّاني من البار معتزلين الجموع. الثانية والنّصف صباحا حين فككت أزراري وقد انفلت بعضها من الخيط الرفيع بسبب تسارع رغبة سي ناصر المندهش مذ رآني بالمدخل وقد كنت أولى الوافدات إلى طاولات السهر فلهذه الليلة خصوصياتها المالية.

تجلّت له حميمياتي، رأيت في عينيه رعشة ورغبة في طحني. كنت متمرّسة على تفرّس ملامح الرجال العنيفين، أحسست بمداهمة خشنة غير محضّر لها. أوجعني فقلت: هل تسمح لي بمعارضة ممارستك مادمت رئيس حزب موالٍ للسلطة ههه؟.

فكّر في واجب القيام بمقدّمة لما بقي من سهرة سيدفع مقابلها خمسة ملايين سنتيم. نزع ملابسه وارتمى على يميني ومد يده نحو شعري وراح يقبلني في عجالة انتهت

بنومه خلال نصف ساعة بعدما مرّغته في عسل لم يذق مثله أبدا. كان مثليا. قبلت الزّواج منه للخروج من البار. خصّص لي فيلا فاخرة، وبتّ أحضر جلساته مع أعضاء الحزب والمنخرطين. يغمزني بطريقته كلّما وجد فرصة ليذكرني بما قاله لي بالأمس عن كيس كذب حضّره لمدح السلطة، ووعد المناضلين بمناصب مهمّة، وقد كانت غايته الأولى والأخيرة الوصول إلى الوزارة متمنيّا حقيبة المالية أو الأشغال العمومية ليقوم بعدها بحل الحزب وبعث المناضلين وبطاقاتهم إلى القمامة.

حياة سعيدة قضيت نهارها مع بنات وزوجات برلمانيين يزورون بيتنا، ونتنقل إليهم أحيانا حسب درجة الصّداقة، وليلا أداري رغبة سي ناصر بما تفرضه من غرائب مثلية كانت تخجلني في بدايات علاقتنا.

**- وها قد سمعت الحكاية يا التايه، أنشرها وحدث بها الآخرين حيثما رحلت، وسلّم على الّذين يكافحون في كل بقاع القهر والخوف، اعتبرها وصيّة، لقد وصيّتك. عدني أن تفعل.**

**- وعد، وعد..**

# مـــديـــحـــة

أخبروني أنّ اسمي امتداد للمدح؛ أي ممدوحة ومشكورة مذ ولدت قبل أن أفعل ما يستحق الشكر. "مديحة بوخلط" اسم شاع في أوساط طلبة الجامعة، حين كنت أبحث عن مكانة في قلوب طلبة كلية العلوم باعتباري زميلة لهم، حيث ترأست منظمة طلابيّة كبيرة ونظمت رحلات إلى قبور أولياء الله الصّالحين مثل عقبة بن نافع في ولاية بسكرة[6] وسيدي عبد الرحمان في الجزائر العاصمة. رحلات برعاية المنظمة والمحسنين من الطلبة الأثرياء الّذين يموّلون وجبات الغداء وغيرها من ضرورات الرحلة، وكنّا نستغل فرصة الوقوف على الأضرحة للدعاء لهم بالخير، ولنا بالصّلاح وسرّا بالزّواج والثّراء، ونختمها بدموع حارة، وتمتمات فيها طلب اللقاء بالنّبي عليه الصّلاة والسّلام، ورؤية وجهه والوصول إلى مكة، والتعلّق بستائر الكعبة.

النهار رحلة في العلم وغضّ البصر، والتمتّع بالبديع من خلق الله كالسماء، والعصافير، والظّلال والشّمس

---

[6] بوابة الصحراء في الجزائر وهي مدينة تبعد عن العاصمة بما يقارب 500 كلم

واللّيل سفر يمتع الخاطر بالهزيل من الخيارات كالفايسبوك، والواتساب، ومحادثاتهما الحميمية مع رجال من كل الأصناف، يختلفون عندي بألوان بشراتهم وأحجام أعضائهم، أمّا الحكايا فكلها متشابهة تندلع بما يليق من أسئلة الفراش (ماذا ترتدين؟ كم حجم سريرك؟) وتنتهي بصرخات، وقطع للخط، أو إسقاط للهاتف أسفل السرير.

حياة تتلذّذ بهزيل الكلام. عشق وحرارات مع وقف التنفيذ وقد تهرّبت لجل الرجال الّذين عرفتهم من خلال وسائل التواصل الاجتماعي، رغم أن بعضهم ظهروا بمستوى ثقافي مهم يغري بالحديث إليهم أو تناول قهوة رفقتهم، مع سيجارة LM مثلما كنا نفعل أنا والطاوس كلما ضجرنا وتعرينا في غرفة الحي الجامعي ونمنا في أدخنتنا وروائحنا الكريهة الّتي تفوح من بين النهود والآباط. وقد امتد تهرّبي من اللقاء سنوات الجامعة مخافة شك الآخرين أو تعرفهم على وجه آخر لمديحة ساخنٍ وشبقٍ يخرق صورتي الدينية ولقبي كمرشدة، خاصة وأن المنظمة الطلابية جعلتني علما، زادتها شجاعتي في

مواجهة مدراء الإقامات والجامعة وأعوان الأمن والّتي جعلتني معروفة جدا. ووحده سي الميلود مدير إقامة البنات القادم من مدينة تيزي وزو من اكتشف أمري بحيله. حيث كلما حدثته مبتدئة الكلام بـ: "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته" ابتسم. وحين أصر على ضرورة توفير الأمن للأخوات اللواتي يسهرن على مراقبة الوضع وخدمة الطالبات في مختلف أجنحة وأروقة الحي يسخر مني: أخوات؟ااااه. ويضحك. وقد عرفت لاحقا سر استهزائه الدائم. فقد انفضحت لامية العنابية[7] وهي نائمة بين أحضان أحد أعوان الأمن. وتم تصويرها عارية الفخذين ببرقع أسود لا يُظهر من وجهها شيئا لولا وشاية شريكتها بالغرفة المطلعة على سرها فسبقت السخرية الكتمان وذاعت الأخبار.

بجامعة الجزائر عشنا مراحل مهمة وقد مضى على تخرجي أكثر من سنتين دون عمل، البقاء في البيت عزز ضجري وشبقي وصار النهار محفلا أيضا لمآزق الليل وامتد الضوء مخترقا ما كان يحدث في العتمة في غرفة

[7] نسبة إلى مدينة عنابة الجزائرية

حولتها إلى مسرح لتخيلاتي الكثيرة وأفلامي الحميمية ورجالي الصوتيين، وقد ساعدني غياب الرّجال عن البيت خلال النهار، وعجز أمي عن الحركة بسرعة وقد ناهزت الثمانين عاما، وبالرّغم من ذلك كسرت نشوتي عديد المرات بطرقاتها القويّة بعصا لا تتخلى عنها وهي في عمق البيت، أمّا أبي الّذي بلغ من العمر خمسة وثمانين عامّا فقد بقي مصرّا على متابعة أشغال البناء وحضور الصفقات والتدخّل فيها، ولم يترك لإخوتي أيّة فرصة للاستقلال! فهو آمر وناهٍ، وقد مدّه الله بصحّة قويّة، فهو يزعم بأنّ صلاة الفجر سرّها، ويلومني على تركها منذ سنوات. يقول مقهقها: "جلباب[8]طايوان"، فأردّ عليه: أنت وصاحبك الحاج كلاهم[9] حكاية طويلة غير متهدروش[10]. فلا يرد، ويدرك مقصد اللمز كوني مطّلعة على رشاوى يدفعانها مقابل الحصول على مشاريع البناء والتّرميم الّتي صارت رهينة حسابات خاصّة تتعلّق بمن يدفع أكثر.

---

[8] في الثقافة الشعبية الجزائرية تطلق كلمة طايوان على السلع المغشوشة

[9] كلاهم : في العامية تطلق على المحتال الذي يستدين ولا يرد الدين

[10] لا تتحدثوا

وقد شاعت ظاهرة الشّغف بالحج بين المقاولين ورجال المال الّذين يحصلون على التّأشيرات عن طريق معارفهم في البرلمان والإدارات، ويدفعون رشاوى مقابلها وتظهر عليهم علامات التّديّن من آثار السّجود وحمل المسبحة في كل وقت وشراء الخراف، وتقديمها للفقراء خلال الأعياد والمواسم، ومساعدة الرّاغبين في الزّواج، ولأنّ المعروف عرفا كالمشروط شرطا، فلم تعد الأعمال تسير دون رشوة. ولا يتوقف دفعها على جلب المشروع، والحصول على صفقة؛ بل تمتدّ إلى رشوة أعوان المراقبة والمهندسين، ممّا جعل الكثير من البنايات هشّة قبل استلامها، وقد واجه والدي السّجن بعد زلزال بومرداس سنة 2003 حين اكتشفت إحدى شركات إعادة الإعمار أنّ منشآت شيّدها مع شريك له كانت منقوصة الأعمدة ومغشوشة من حيث سُمك الخرسانة والعدد، ولولا وزير سابق تدخل سرّا ما كان لينجو بفعلته.

البيت مقبرة مفتوحة. فخروجي إلى عمل رسمي يستوجب مبررات وترخيصا، وصار لكلّ فرد من الأسرة

رأي عليّ ومشورة. خلوتي تمتدّ طيلة الليل وتنقطع صباحا حين تبدأ طرقات أمّي على الباب داعية للاستيقاظ شقيقتي سهيلة تحرضّها. ماهذا النوم؟ تقارن نومها بنومي دون الانتباه إلى فرق السّاعات والأفعال. اضطررت أكثر من مرة إلى الهمس في أذنها: توقّفي عن فعلك، فسهري يمتدّ إلى الرابعة. ما الّذي تفعلينه في هذا الوقت المتأخر؟ الإجابة أخطر عليها من أيّ صدمة!

سهيلة بلا روح تقريبا! ليس لديها ما تتحدّث به عن نفسها. حيثيات لا يهتمّ بها أحد من العائلة: "زوجة الحاج ولدت طفلا. العارم تحضّر الكسكسي لزواج الوردي وغيرها من تفاصيل الآخرين". فبالرّغم من الحياة العاصمية الّتي نعيشها منذ عقد مازالت تبحث عن تفاصيل تتعلّق بالقرية الّتي قدمنا منها "عين آزال" وتبحث عن جوّها حيثما كانت. امرأة متصالحة ومنسجمة مع حياة هادئة ومحدودة، لا أدري كيف بإمكانها أن تستمرّ، وتعيش داخل يقين واحد يجعلها تؤمن بأنها خلقت لتطيع، ويقرر لها الآخر كيف تكون وأين ومتى، ليس بداخلها أيّ تمرد أو ثورة، وتعدّ صالحة

وامرأة بيت في عيون الأنانيين من الّذين يعالجون فجواتهم النّفسيّة ونرجسياتهم بمحاولة إركاع كلّ امرأة تقول لا. فيكسرونها بالمنمطات من غالبية تشتهي الطّاعة، لذلك لا تريحها مدينة قطعت مسافة ذهنية وتخلّصت من رواسب الأجداد، بما تركوا من تقاليد تشجب الحريّة.

حياة العاصمة مختلفة. شعور عام بالحاجة وشحّ إنساني لا يندمج معه القادم من الريف بسهولة، إذ لم يسهل عليّ التخلص من مرح زائد وأسئلة عدّت خصوصيات كنت أطرحها بعفوية طفلة. تعوّدنا أن نعرف كل شيء عن بعضنا في قريتنا، فقد تلقيت وابلا من نظرات التعجّب وحتى الاحتقار خلال سنة ثقيلة قضيتها أتعرّف على الشّوارع وأنا تلميذة في المتوسط، لقد شدتني البنايات ولغة الناس. وعبر سنوات استبدلت اللهجة تلقائيّا، واندمجت متخلّصة من كل ما بإمكانه جعلي أبدو غريبة.

اللهجة العاصميّة أحنّ من بقية اللّهجات الجزائريّة. نطق انسيابيّ يسهّل ارتعاش الآخر حين أدعمها بألفاظ

مشرقيّة أوّل اللّيل، وصرخات في آخره، وحين يؤذّن إمام الحيّ أصمت مهما كان الوضع.

الآن وقد ناهزت الثلاثين بعمر الأحياء، والتّسعين بعمر الشهوات، بدّدت طاقاتٍ عظيمةً لو كان ممكنا استخدامها في عمل ما كان ناجحا بلا شك. لكن أنفي الطويل سرّ مأساتي! إذ يبدو منتصبا كخيمة كلّما نظرت إليه في المرآة. بُفْ كيف داير!

أشدّ غطاء الرّأس، فيزداد قبحه وضوحا. عضو ذكري منتصب في مساحة وجهي الصّغيرة، وحين أنزعه داخل البيت يتراجع. يسهم جمال شعري الحريريّ في ترقيع ما أحدثه فيّ من فداحات. فأنظر في المرآة، فأجد بقع وبثور حبّ الشّباب قد غزتني.

العادة السّريّة مهلكة لجمال نسبيّ يصبح فائقا لو استيقظت ذات صباح ووجدت أنفي مستبدلا بأنف مريام فارس مثلا، أو ليوناردو دي كابريو الوسيم الوقح الّذي تجعلني رؤيته في الّتيـتانيك أو غيره أرخي رباط حمالة الصّدر فورا، وأدسّ يدي داخل حلمتين تنتفخان بسرعة. صرت أمسح يدي بمنديل مبلل بالكحول قبل

تدليكها، فقد أصبت سابقا بالتهاب حاد، كاد يفقدني حلمتيّ. جمالي الخفيّ المعطّل الّذي كشفته نادرا لبعض المتّصلين على الواتساب.

أنظر في المرآة آخر المساء، فأجد هالاتٍ حول عينيّ من قلة النوم، ووزنا يزداد يوما بعد يوم. نظام غذائي يجعل العجائن ركائزه، الكسرة[11] تعزّز رغبتي في أكل كميات إضافيّة بعد فشل كلّ رجيمٍ[12] شهري دخلته وخرجت منه بعد ساعات. العادة السرية أقبح اختراعات البشر، تسبّب إرهاقات نفسيّة تجعلني أضاعف الأكل، وأرمّم مزاجي المنتكس بالشكولاتة السوداء. أعدّها وصفة سحرية لسعادة أتجاوز بها ضجر النّهار، وأستمتع ليلا بصفع جسدي على كل الجهات. صوت رنّان، واحمرار بشرة بيضاء يشجّع على الجنون. الفخذ الأيسر عليه أثر حلاقة غير موفقة بعد استبدال آلة براون[13] بآلة أخرى أحضرها جارنا نسيم من فرنسا، وقد

---

[11] من أنواع الخبز الجزائري.

[12] حمية غذائية

[13] BRAUN

أخفّض لي سعرها إلى الرّبع بعد أن وعدته برؤية حميمياتي حين أحلقها بها.

حين اندلعت أحداث الربيع العربيّ في تونس ومصر وسوريا جهّزنا أبي لكل الاحتمالات، سحب أمواله تدريجيًا من البنوك وشرع في تحويلها إلى اليورو بمساعدة أصدقائه من المقاولين والسّياسيين. أعدّ للهرب بنا خارج البلد خشية انهياره، خاصّة وأنه قد خبر محنة التسعينيّات حين كنا نعيش في عين آزال[14]. كان يشتغل مقاولا بالعاصمة في جوّ مهني وإنساني معقد، وقد فقد صديقا عزيزا شاركه بدايات الأعمال ونجاحاتها في كمين لجماعات إرهابيّة كانت قد دخلت خطّ السّلب والنّهب بعدما حاولت في سنواتها الأولى من الإجرام استهداف الشّخصيّات الوازنة، والمثقفين للإضرار بالدولة. قبل أن تتحوّل إلى آلة تبيد كل ما يصادفها.

تحصّل أبي على وثائق الإقامة في فرنسا عن طريق زواج أبيض قبل زمن بعيد.، فبإمكانه الآن تسوية وضعنا، فقد حصل على الجنسيّة مما يتيح المغادرة، وبناء

14من بلديات ولاية سطيف (300 كلم شرق الجزائر العاصمة)

حياة جديدة نضمن فيها سلامتنا وسلامة الثّروة الّتي جُمعت خلال سنوات طويلة. لم تعد فرنسا آمنة تماما مثلما كانت، فالأحداث المتلاحقة برهنت أنّ العالم صار متاحا للقتلة لكن ضمانات الحياة الكريمة مضاعفة في بلدان تموقعت في قوائم الدّول الأكثر عناية بحقوق الإنسان.

كان ينظر إلى الفرار كحالة طارئة وضرورة إذا حدث مكروه، عكس تفكيري تماما، حيث انتظرت بشغف حدوث شيء يعجّل بخروجنا من مكان لا يتسع لحرّيتي وحبّي للحياة. أشعر بأنّني مراقبة من كل الجهات فالعاصمة على اتّساعها لا تحتوي حرّيتي في بيت يراقبني الآخرون فيه لا خوفا عليّ؛ بل خوفا على صورتهم عند الناس.

في الرّيف المراقبة شاملة. الكلّ يحرس الكلّ؛ لأنّ المدينة صغيرة تتيح ذلك. وبالرّغم من أنها كبرت بعد سنوات الاستقلال إلّا أنها حافظت على ريفيّة التّفكير والتّعامل. ففي العاصمة أرياف مصغّرة. كل "حومة" هي ريف خاصّ. سكان الأحياء الصغيرة فضوليون. يرحبّون بك بأسئلة روتينية. يسخرون منك في البداية ثمّ

تقل سخريتهم حتى تنتفي. فحين تعرف حقيقة طباعهم تكتشف أنّ لا فرق بينك وبينهم سوى كرم زائد تتخلّص منه خلال سنة أو سنتين.

ستستمرّ حياتي في الجزائر، ويتضاعف حزني على حرّية حلمت بها، وأحاطتني بنورها في أجمل لحظات التّخيّل الّذي بقي لي مساحة أخيرة أفرّ نحوها كلّما داهمني ضجر قاومت بعضه برعشات جسديّة تنتهي في الورق دون أن أحصي عدد أطفالي الشّهريين الّذين ابتلعتهم قنوات الصرف والقمامات، وبعضه الآخر قضيته في ترتيب الوسائد الّتي ألقي رأسي عليها مثقلا فتطير به إلى خاتمات الأحلام.

أنا امرأة حالمة كما يصفني صديقي الموظّف بدار الثّقافة الّذي يشتكي وضعا ثقافيّا هزيلا كلّما التقيت به أردّ قائلةً: أنت حالم أيضا، فقط تنتظر تفاعلا مع نشاطك الثقافي داخل مؤسسة تمّ بناؤها على الولاء للثقافة الوطنية، وتطبع مؤسسات وزارتها كتب التاريخ أكثر من كتب الحبّ، وتوظّف بؤساء يحملون فقرا ثقافيّا بإمكانه تبديد ثقافة بلد بحجم بريطانيا. يضحك محاولا إغرائي

بقراءة كتب الدّكتور مصطفى محمود، وأنيس منصور فلا أقرؤها. فما مبرر قراءة لا توقف حكّة ليليّة؟ فقد اقترحت عليه أن يجد لي رجلا يكبرني بخمسين عامّا. يزيل غشاء بكّارتي الّذي عطّل نشوة صارخة، فيفتح طريقا نحو كلّ الرّائعين من الرّجال! في سنّ يكون قبره مفتوحا. والمسافة بينه وبين صلاة الجنازة سنة أو سنتين وإذا أطال البقاء أخلعه بذريعة الشّيخوخة، والعجز الجنسيّ.

يكتفي بالقهقهة والقول: إنني عاهرة.

نساء مجنونات. واحدة مستشارة في الثّقافة تكره الكتب، وأخرى لا تقرأ؛ لأنّ القراءة لا توقف الحكّة وأخرى غابت ثلاثة أشهر، وحين عادت قالت جئت من أجل العطلة، وأخرى تخيط داخل المكتب، وأخرى تنتظر وعدا بالزّواج تأخر عشر سنوات وأخرى تضع أقدامها على أريكة مكتبي دون خجل وأخرى تزور مشعوذا كل شهر ليبدّد سعادة زوجة شقيقها! كل هذا في مؤسسة صغيرة ندّعي أنّها ثقافيّة.

تقلصت زياراتي لدار الثقافة. فالمسافة صارت بعيدة عن البيت، واستحالت تنقلاتي السّريّة الّتي خبرتها طيلة سنوات الدّراسة بالجامعة.

أقرأ على الواب "أقسى السّجون وأمرّها تلك الّتي لا جدران لها". أدونيس شاعر سوري يقول عبارة تمسّني بعمق، هذا سجن مفتوح على اللاجدوى والضّجر. وزني هذا الصباح 90 كيلوغراما بطول متر وستين. وقد تحوّلت خلال وقت قصير انقطعت فيه عن المشي إلى دبّة. ألهث بسرعة وأصاب بالفطريات بين الفخذين دوريا رغم العلاج، ومؤخّرتي باتت تجذب الأنظار حيثما وجدت. صرت محلّ سخريّة، ستنفجرين، رائحة تتطرطقي. ما هذا؟ عبارات تتكرّر كلّما زارنا الناس. الذّكور تتبدّد ملاحظاتهم حين ينظرون إلى الجلّابة المفتوحة على الصّدر، يرون مضيقا يتّسع لرأس بشري! فيكتفون بعبارات الشّكر على حلويات شهيّة كنت أعدّها وأخفض رأسي خجلا، لعلّ أحدهم يفكر فيّ زوجة أو يتحدّث عني لأصدقائه.

سجن مرّ لملايين مثلي. لا نتعب نهارا فنقضي اللّيل في فداحات كثيرة. تمنيت عودة مرهقة إلى البيت، لأرتمي على سرير، وأحلم مثل المتعبين بعد عمل شاق. تمنيت رجلا يستقبلني أو أستقبله آخر المساء، فنغتاب مدير العمل، ويوحي لي بتغزّل زميلته في المكتب، فأخنقه وننتهي متصارعين على فراش من حبّ لكن هذا لم يحدث ولن يحدث وقد بلغت من الهزيمة المرارة. لقد بددت قدرتي على الحبّ، ولخصّتها في شهوات، ومضيت نحو نهاية ما.

سأكتفي بقضاء المتبقّي من العمر في بيت لا ورود فيه تنتابني حالات من الذّعر كلما تذكّرت ماضيا مرّ سريعا ولم يرسّخ فيّ إلّاّ عادة سرية قميئة وهالات سوداء أسفل الجفون. كلّ ما اتّخذته من حيطة لزمن قادم انمحى حيث أفلست بعد منح مبالغ ماليّة لرجل من ضباب وعدني بخطبتي فور انطلاق مشروع مخبزته الّتي ستموّل وسط العاصمة. تخمّرت بدل خبز وهمي، وانتفخت أحلامي أكثر ممّا يجب. مئة وخمسون مليون منحها لي أبي

في لحظة انتشاء قائلا: إنّها لزمن لا نثق فيه، أهدرتها ودخلت مرحلة من عياء لا حدود له.

صباح آخر ألاحظ فيه انتفاخات على صدري بدت غير طبيعية خلال شهرين من تلمسّي لها. زيارة الطبيب صارت ضرورة. أرتدي الجلباب وأمضي إليه بخوف جديد طغى على مخاوف عاطفية احتفظت بها لسنواتٍ.

تحسّسها بنعومة، انتظرت أن يطمئنني لأنشغل بوسامته. أجلّت ذبول رمشيّ، وتحكّمت في نفَسٍ مستعجل، لكنّه لم يفعل.

وجّهني نحو أطباء آخرين. وخلال أسبوع من فحوصات متتاليّة أعلن طبيب الأمراض النسائية بأسف أنّني مصابة بالسرطان، فيغمى عليّ.

أعود إلى بيت زادت أسواره علوّا. صارت ممتدّة أمامي تلامس السّماء، وتغلق أي منفذ للضوء. لماذا أنا وفي هذا التّوقيت؟ لم أطّلع أحدا على ما اعتبرته سرّا سينتهي بضرورة تساقط شعري، واصفرار بشرة تعوّدت على اللّون الورديّ.

أين الّذين تنهّدوا دائما: آآآ ه.. عندك وحد الصّدر! أريدهم الآن ليلتقطوا معه صورة أخيرة، وينفخوا حسدهم على صدر لم يُمنح لفم طفل حلمت به. سيقتلع من جذوره بعد أسابيع ويرمى في مزبلة ما. فهذا العالم الثّالث لا يقدّر الأحياء ويتساهل مع ارتمائهم في البحر لذلك لا أتوقّع منه اهتماما بنهد لم يعد يصلح إلاّ وجبة لقطط وكلاب المزابل. علمت أنّهم يقومون بدفن الأعضاء في المقبرة. هنيئا للدّيدان هذه الحلمات الورديّة. ستكون وجبة لذيذة تشبه كسكسا نلتفّ حوله كل جمعة. متعة كبيرة لدود سيتكاثر منتشيّا بلذة غير متاحة دائما، فلا شبه بين نهدين وأعضاء أخرى فقيرة الجمال خاصّة وأنّني صاحبتها الّتي حرصت عليها سنوات طويلة، وعزّزتها بأغلى الحمالات وأكثرها راحة.

أفكّر في سي الطاهر دفان مستشفى مصطفى باشا حيث ستجرى لي عملية الاستئصال. ماذا سيقول وهو يخرجه من صندوق حقير مخصّص أصلا للبطاطا أو الطماطم؟ سيجده نديّا وكبيرا، وسيقارنه مع نهد زوجته الّتي لا أعرفها، لكن احتمالاتي ضئيلة في كون هذا النّهد

أجمل وأهمّ من نهود أغلب نساء الجزائر على الأقلّ. آسفة سيّدي لو أعرف أنّك ستتنهّد متحسّرا عليّ وعليه، أو تسقط دمعة واحدة على نهد لم يصادفك مثله منذ دخلت عملك، سأمنحك لذّة أخيرة. فأنت وحدك من ستحزن عليه منتهيا مرميّا دون رغبة في الوصول إليه، فقد انتهى ومضى نحو حتف أكثر قرفا من الدّيدان.

أبكي الليل وحيدة. يخبرني الطّبيب بأنّ موعد الاستئصال بعد أسبوعين (25 نوفمبر 2009)، تصبح نظراتي رهينة نهدين دخلا مساحات من ضياع وقسوة يرقّعها طبيب وسيم بحديثه عن تعويض الفراغ بصدر مزيف !كيف تعوّض قطع خارقة بالبلاستيك، جنون الأطباء رغم وسامتهم بلغ أقصاه، مصيبتي أكبر من بلادة مضمونها التّعويض والصّبر. عبارة "ربّي يشفيك" وحدها تقنعني كمهرب من كل تشفٍّ أو اقتراح لحلول لا جدوى منها خاصّة بعدما أخبرت العائلة وانهارت أمّي. دخلت في حالة إغماء مطوّلة نقلت على إثرها إلى مستشفى نفيسة حمود، وبقيت هناك أيّاما طوالا تعالج ارتفاع نسبة السّكر. والّذي بكى بحرقة، ولم يرد إخبار

أحد. لا شقيقي المتواجد بمدينة تولوز الفرنسية ولا شقيقنا الآخر الموظف بمنطقة حدوديّة بين الجزائر والمغرب.

ومن جماليات المرض أن اكتشف من خلاله وجود قلب دافء وروح تئن عند سهيلة، فقد بكت بخشوع. فكّرت في رحمة نزلت عليها فجأة وجعلتها تبكيني وتصرّ على ضمّي إليها قائلة: "مديحة متروحيش". لقد فتحت جرحا بنية المواساة. هل تتوقّع رحيلي قريبا نحو قبر لا يتّسع لخطايا جمعتها خلال سنوات من الجنون؟ استبعدت الموت رغم أنّ مرضي بوابة كبرى من بواباته. صرت متأكّدة من كوني لن أهرم، ولن أحكي لأحد وأنا عجوز لا يعوّل عليها مصائر رجال عرفتهم، ومغامرات وحماقات كثيرة.

ربما تبكي سهيلة خوفا من إصابتها، فدراسات كثيرة قضيت اللّيالي في قراءتها تشير إلى عوامل وراثيّة تسبّب سرطان الثّدي. لن أفكّر في نيّتها أكثر.

بكت بحرارة لم أرها يوما، وانغلقت عيناها الذئبيتان داخلة في موجة من عويل جعلتني أواسيها بدل نفسي.

كيف لم أشعر بأخوّتها رغم الفرق الصّغير بيننا في العمر؟ أكبرها بثلاث سنوات، ليس فرقا مهمّا بالنّسبة لشقيقتين لا تتشابهان. الخليقة فرّقتنا فهي سمراء بطول سامق وأنف صغير لا يشبه أنفي، وقدمين أكبر من قدميّ وهذه ميزتي، حيث أسحر الرّجال كلما نزعت حذائي متعمّدة في المطاعم وأروقة الجامعة. كنت أمدّ أصابعي لتداعب بعضها فتذهل العابرين. الخزامى، والبرّاق، وبياض مختلف عن بياض الأوروبيّات، فيه مسحة عربيّة تفتح خيال الرّجال، فيتوهّمون قدميّ على صدورهم وأكتافهم ويغرقون في الأحلام.

صبيحة اليوم الأوّل في حساب الأوقات المتبقيّة لموعدي مع الجحيم، استيقظت متفائلة وساخرة من كل شيء. أرحت الجميع بضحكات داعرة جرّبتها على الهاتف. مع نسيم الّذي نسيت وعدي له برؤيتي حليقة ومع موظف دار الثقافة الّذي جنّ من هلوسات زميلات قبّحتهنّ الحاجة الجسديّة.

أقبّل أمي وأداعب سهيلة، فتجاملني بضحكات لم تتعوّد عليها. ويجلب أبي مشتهياتي من الطّعام. جوّ حميميّ

لم يكن قبل مرضي. يا لها من متعة في الوقت بدل الضائع! أعدّ الأيام، وانتظر سقوط كل ليل لأشطبه، وأتلمس نهديّ في وداع دامع.

صرت أخرج دون مشورة، بعد أن تحقّق الجميع من نهايتي القريبة. فلا أسأل عن الوجهة كلّما حملت حقيبتي وغادرت متزيّنة بأجمل ما أملك من لوازم. فوجئت بتضاعف الاشتهاء، حلمتان غير متعبتين حين يتعلّق الأمر بشبق أزليّ. الآن فقط صار بإمكاني التّأريخ لنهاية رغبة أحرقتني سنوات طويلة. لذلك قررت في صباح بارد إنهاء مخاوفي من الموت والاستئصال، والعلاج الكيميائيّ، خرجت لألتقي بنسيم في محلّه، حيث لا زبائن له قبل الظهر. تجارة كسولة في مدن لا تتعطر كثيرا ولا تحلق عاناتها إلاّ لسرير هامّ، أو مواعيد أولى في سرير الزوجية تنتهي بالابتذال، ونسيان الحلاقة لأكثر من شهر، وتحمّل روائح أعضاء حميمية يُرفع التّقديس عنها فتصبح عادية، ومعرضة للتّحطّب مع تتالي الشهور.

نسيم يعرض عليّ دخول مخزن خصّصه لسلع يجلبها من فرنسا لزبائن لا يستلمونها دائما. كان مشتهاي

عرضه. هرولت نحو مخزنه، فتلقيّت ضربة على الرأس من لوحة سميكة فصل بها المحل عن المخزن، دارت حولي الجدران، وكاد يغمى عليّ. ارتخيت على سرير خشبيّ، فوجدت عليه أثر منيّ ونوتيلا ورطوبة تضاعف اشتهائي للاستلقاء. فالأمكنة النّظيفة ترتبط عندي بالصّلاة، وكلّما رأيت ثوبا نظيفا انبجس صوت أمّي بداخلي قائلا: هذا الثّوب أصلّي فيه فلا تدنّسيه.

لا تنسى أمّي فرجي مذ كنت طفلة أتبوّل قربها وكان اتّساع فتحة التبول مثيرا لاهتمامها، بكبر وقوّة ضخّ تجعلني أسقي حواف المرحاض وملابسي. وحين كبرت وجدت حلّا باقتراح استبدال مرحاض القرفصاء بمخرأة انجليزية. لبّى أبي الطّلب بسهولة ودون استفسارات فهو مقاول يشغّل بنائين ورصّاصين كثر وصرت أغسل كل أجزائي الّتي تلج عمق مرحاضنا الجديد.

رفعت الجلباب ليظهر سروال مطاطي وبطن مشحّم. أغمض عينيّ وأفتحهما لأبدو دون وعي، واستمتع

بلعاب نسيم الّذي لم يجرؤ في البداية على لمسي. أسحبه نحوي أضع يديه على صدري، فيهجم عليّ كأسد.

كان الأول الّذي منحته نهودا ستزول بعد أيام، ولم يكن الأخير. الجزء العلوي فقط، والمرّة القادمة سأمنحك أكثر. وأختم كل لقاء بدمعة خوف من غد مجنون لن أعيشه، ولن أفي بوعدي اتّجاه سبعة رجال جمعتهم من الفايسبوك والواتساب والسكايب واخترت منهم الأوسم والأشرس لمهمّة إرضاء ثديين سيصيران بين يدي سي الطّاهر الدّفان الّذي يملك ذاكرة تجمع النهود الّتي مرّت على المستشفى خلال عشرين عاما.

أنظر ليلا إلى نهديّ، وأرفع عينيّ صوب السقف لأرى ما يبث الخيال، فتنكشف لي صورة وهميّة ليدين تغطّيهما قفازات طبيّة شوّهتها التّربة، أراه يضع أكثر من نهد برويّة، أحدها أسمر وعليه أثر حبوب لا يثير شهوة وآخر سمين بلا حلمات. وكان الأخير ملكي، رأيته يحمله بيديه بدل يد واحدة، فحجمه ووقاره يحتّم استخدام كل الأطراف والحواس لتشييعه نحو مثوى سيضيق بآثار العيون الّتي اشتهته رغم التخفّي، والّتي رأته، فمحت

ذاكرتها من نظرات سابقة نحو نهود كثيرة، وغرقت في انبهار أبديّ، سي الطّاهر سيعود حزينا ذلك المساء، ولن يوفي زوجته حقّها مهما حاول التنكّر لما رآه من جمال راحل وأخشى عليه أن يفقد القدرة على تذوّق النّهود بعد الدّفن، فليس سهلا عليه أن يواجه حلمات ساحرة وأن يختلي بها، ولا يشهد تمنّعي الّذي قد يعطّل اندفاعه قبل أن أقرّر إشعاله دفعة واحدة، فعادتي التمنع حتى ييئس كل رجل يظنني سائغة ثم أنسيه غضبه بحرق دمه وجعله يتعرق وينضح شهوة.

أدخلت مركز بيار وماري كوري في الموعد المحدّد. تمّ تخديري ونزع الثديين معا، فلم تعد هناك أية فائدة ممكنة من استئصال جزئي بعد تمدّد الأورام وانتشارها وخرجت بصدمة نفسيّة انفجرت فيّ حين فطنت على غياب كيلوغرامين منّي، ومساحة كانت مؤثثة بشكل خارق.

صارت الأمور أكثر جديّة من أيّ وقت. تلقيت زيارات كثيرة بعد أن شاعت أخبار إصابتي. كل امرأة دخلت عليّ حاولت إخفاء صدرها، خوفا من عينيّ أن

تمتدّا إلى نهود غير ضرورية، فجلها مندلقة وبائسة خاصة ما تعلق بصديقات أمّي اللّواتي تختلف أعمارهن بين الأربعين والستين. فبالرّغم من كبر سنّها تعتبرهن شابّات تستلهم منهن الشّغف.

أسئلة ضِحال الذّوق دائمة. كيف لم تنتبهي؟ لماذا لم تقومي بفحص بالماموغرافي؟ لماذا لا تسافرين إلى الأردن للعلاج؟ لا أجيب عادة، وأنتظر مرحلة العلاج الكيميائيّ الّتي ستلغي شعري من خريطة جماليّة فقدت أبرز إحداثياتها. لم أهتمّ به، وبالشّحوب وغيرهما من العلل القادمة. يكفيني أن أعيش ما تبقى من وقت بحكمة.

المرارة بلغت مراحلها الأشدّ ضراوة بعد الجلسة الثّانيّة والثالثة من العلاج الكيميائيّ. إذ صرت أجد كبّة شعر تحت وسادتي يوميّا، واضطررت لارتداء قبعة سانتا كلوز بتصميمها المرح، ولونها المشجّع على حبّ ما تبقّى من أيام مالحة سأتلقّى فيها علاجات أخرى أكثر إيلاما.

مرّت أسابيع من القيء والشّعور بانسداد المسالك وتعاظمت النّصائح غير المجدية من شرب الكوكا وأكل

الخرشف النيء، وصار الابتسام حتميّة في مواجهة وجوه تنظر إليّ بملامح مأساويّة، ولا تطيق شحوبي، وذوبان وجنتيّ وجحوظ عينين غارقتين في محيط من الشّحم.

حتى العلاج الكيميائيّ حُسِدت عليه من مريضات علمت منهن أنّ مواعيد الجلسات تتأخر من ستة أشهر إلى سنة، وبعض المرضى ماتوا قبل وصول موعد يتأخر لأسباب تتعلّق بعجز هيكليّ عن استقبال أعداد كبيرة من المصابين. وتزاحم يغلب فيه من لهم وساطات وقد كنت منهنّ، فلم أنتظر كثيرا بتدخل أبي الّذي يعرف رجال الأحزاب السّياسية ومقاولين لاحدود للمحسوبيات الّتي يتحكمون عن طريقها في الأجهزة الرسمية وغير الرسمية.

أنظر إلى هاتفي كلّما سمحت الفرصة، واتّضحت رؤية عينين مسحهما ضباب الصّداع. صورتي بدانتيل أحمر تثير شهية بائدة نحو جمال لم يعد ممكنا التّفكير في عرضه بحفر غائرة أفقدته جاذبية كنت شغوفة بها. في هاتف كل امرأة عرفتها صور شخصية دون خمار. زينة تبديها النّسوة لبعضهن حين تقلّ محافل وأعراس ننتظرها

بشغف لإبداء الممتلكات الجماليّة. تنبجس صورة "حبيبة" فجأة داخل تأمّلاتي بصور كثيرة تكشفها لمن تلتقيه وتثق به بسرعة، في مجتمع يطرح سؤال العمل على البطال، والزّواج على العانس والمشي على المعاق والقراءة على الأمّي وغيرها من الأسئلة الموغلة في الجرح، حيث كانت تكشف صورها الملتقطة في الأعراس والحمّام وغرفتها المزينة بصور نجوى كرم والشاب خالد وغيرهما من المشاهير، لينبهر من يراها بأنواع وألوان من النويزات تتجمّل بها لصور الوسيمين من الفنانين والممثّلين، حيث تصل عدد الأعين المحنّطة إلى ثلاثين. أي خمس عشرة شخصية لا تتفاعل حين ترى حبيبة معلقة بشهوة تبددها بانبهار الآخرين كلما رأوها في شاشة هاتفها المهترئ من كثرة الاستخدام.

تذكرتها باحتراق ورغبت في أن ألتقيها الآن لتعلمنّي مقابلة عيون خرساء لا تشع حين تراني عاريّة، أو تحتفظ بإشعاع ضوئي جمدته كاميرات كانون ونيكون[15] المجنونة بقدرتها على جعلنا نبدو جميلات في عزّ الخيبة، فلا أظنّني

---

NiKon /canon[15]

قادرة بعد العلاج على إبهار أحد بعدما قضيت سنوات أستند فيها على جمال خارجيّ بدل آخر داخلي أظهره كلما فكرت مليّا في الزواج من رجل يقبع في قائمة طويلة كانت نهايتها النّسيان.

حبيبة ما فاتها القطار مثلما زعم مشردو الشّوارع من حرس الحيوات الخاصّة الّذين يثقبون ابتسامات الآخرين وترحابهم بطرح أسئلة بائسة. فهي لم تظهر جمالها فجأة والّذي أخفاه حجاب ارتدته منذ السّنة الخامسة في المدرسة الابتدائيّة بأمر من والدها المناضل في حزب الجبهة الإسلاميّة للإنقاذ، والمغتال في ظروف غامضة تاركا خلفه جرحا عائليا ونظرة عداء جماعيّة لهم باعتبارهم أبناء قاتل مفترض.

قد تكون تزوّجت وحققت رغبتها في التّعرّي لشخص ترتعش يداه لهفة أمامها، وربّما جنت فوضعها النّفسي لم يكن مريحا. تجتاحني رغبة في رؤيتها بعد سنوات من الغياب! ففي آخر مرة شاهدتها كانت بالجامعة قبل سبع سنوات على الأقل. لا أتذكّر جيّدا وقد كانت تكبرني بأعوام، ربّما تجاوزت الأربعين.

مرّت ستة أشهر من العلاجات وانتهت أوليّا بأمل ألا تعود الأورام، وتفاجئني حين أقتنع بانطفائها إلى الأبد وأستعيد شعري ووقفتي ورجال الصّوت والواقع الّذين خسرت آخرهم سي الطاهر الّذي رمى نهديّ وعاد كئيبا - كما أتوقّع- حزنت من أجله كونه لم يتعرّف عليّ، ولم يحظَ بفرصه تذوّقهما قبل أن يجفا، ويقبرهما في تراب بارد.

ببطء استعدت قدرتي على الضّحك، والشّعر الّذي نبت، وقد جاء حريريّا وأكثر تفتّحا من شَعر راحل، كنت أحتفي بفركه باللّيمون، وزيت فاتيكا والثوم. سعدت بطلة الشّعر الجديد على حواف أذنيّ واخترت له شاشيّة تونسية زرقاء جعلتني أبدو كدمية ببياض بشرة متعبة وحاجبين جديدين دقيقين بلا حاجة لنمص أو ترقيق. وقد فكّرت قبلا في قلع الزّغب النابت بخجل، وتحويلهما إلى حواجب من تاتو، لكنّهما سرعان ما أغرياني حين ظهرا صفراوين، وتكاثفا بسرعة. جمال جديد أعيشه وأتلقّى تهاني الشّفاء يوميّا من الأهل والزّوار. أبي صار يضمّني صباحا بحرارة ويتحدّث عن طفولتي ومرحي ويذكّرني بخصوماتي مع صبية الحيّ الّذين أشبعتهم

ضربا، إما لاعتداءاتهم على سهيلة المسالمة أو لرفضهم خدمتي في بعض الشؤون. لكنّهم سرعان ما كبروا واستقووا علينا، وصار مكاني الطّبيعي هو البيت بعد العودة من الدّراسة. وقد حظيت بتقديرهم دائما وتحاياهم غير المفيدة مادام أحدهم لم يفكر جدياّ في تحويلها إلى مشروع ارتباط يخلّص الجميع من شبق معلق.

استعدت عافيتي بعد سنة من علاج بقيت آثاره على مستوى مفاصل أصبحت هشّة، وقوّة بدنيّة سريعة النّفاد.

لم اهتمّ بالوضع الجديد باعتباره حياة ثانيّة بعدما فتح الموت نافذته عليّ، وأطل بكامل وقاره في حالات الغثيان الّتي استكملها بشهقة يحسبها الممرض وداعا. فقد كنت أختنق وتجحظ عيناي لثوانٍ ثم أعود. وها قد مرّ السيناريو وعشت أعاصيره وخرجت بقناعة نهائية (ما يحس بالجمرة غير اللي كواتو[16]) تتعلّق بكل من سمعتهم يعدّون حصصا وبرامجَ تلفزيونيّة حول مرض قاتل يلطّفونه باللّون الورديّ، ويبتسمون، ويأتون بشعارات

16 مثل شعبي جزائري : لا يشعر بحرارة الجمر إلاّ من اكتوى به.

باردة تشبه ما قرأته عن شعارات الاشتراكيّة، والثّورة والدّين.

صارت لي مواعيد يوميّة مع أصدقائيّ القدماء من بنات وشبان الكليّة الّذين بحثت عنهم، فوجدت بعضهم قد عرف بمرضي، وآخرين لم يسمعوا عني خبرا مذ افترقنا في آخر سنة جامعية. لم يعد يسألني أحد عن توقيت دخولي وخروجي؛ بل صاروا يهلّلون كلما دخلت منتشية بلقاء أو مطعم اكتشفته، أو نزهة في حديقة من حدائق العاصمة الّتي لم تشبه حدائق العالم يوما. أدركت أنّ الطّبيب قد حذّرهم من مضايقتي، وأطّلعهم على خطورة ما أحمله بداخلي من نواسف بإمكانها اجتثاثي من الحياة خلال شهر أو أقل لو تعود بضراوة تعجز أمامها كل جرع الكيميائيّ، والمورفين المستخدم لتخفيف الألم.

الشكولاتة السّوداء. كلّما تذكّرت انقطاع عادتي الشهريّة بعد العلاج وضياع الخصوبة تناولت علبتين كوجبة عشاء وضجرت من داء لم يتسامح معي. فلم يكن السّرطان مهددا بفقدان مكانته كأعتى مرض في الكون لو تأخر قليلا واستوطن جسدي في الخمسين. ربّما منحني

فرصة لإيجاد رجل أقترن به بسرعة وأنتظر ليلة حارّة أحمل منه، وأنجب طفلة تشبهني أو ذكرا يحمل شغفي لأنتقم به من عجائز رفضن زواجي من أبنائهن دون مبرّر، فأزوّجه أربع نساء ولا أرفض أيّ امرأة يقترحها. ففي النّهاية كلنا نحمل ثقبا واحدا لا فرق.

وقد بدأت لقاءاتي برجالي المسحوبين من الواتساب والفايسبوك والسكايب بشعار تعلمته من أستاذ جامعي (من النات إلى الحياة)، فنقلتهم مجدّدا وبدأت مواعيدي تتكاثر، وكل رجل يمنحني فكرة جديدة عن هذا الجنس العجيب والمفاجئ بحيل وكذبات غير متوقعة. إذ كانوا كذبة وصادقين. طوال كلّهم، فلا شهيّة لدي في قصار القامة الّذين أتخيّلهم بأعضاء متحفظة، لا يتجاوز طولها عشر سنتيمترات وهذا غير مفيد إلاّ للبريئات اللواتي يبحثن عن رجل للسترة، وقد شاع مصطلح السترة لمن ليسوا عراة ولا مرميين، فصار الرجال كائنات طائرة لا يقبض عليها، والجميلون منهم أصبحوا صحونا فضائيّة تتحدّث عنهم الأفلام دون أثر واقعيّ.

المواعيد الّتي توزّعت بين السّيارات والشّقق والغابات زادتني شغفا. أستمتع بشعر حريري وحاجبين مستويين، ونهدين وهميين مرقعتين، وقد نزعت الجلباب واخترت سراويل الجينز ولم تستطع عائلتي التدخّل، مع أنّهم وجّهوا لي نظرات استياء عدا أمي الّتي صارت تدلّلني كطفلة.

الرّجال مدّوا أيديهم نحو صدر طمره سي الطّاهر وقد بحثت في التراب الّذي أخذ الكثير من الجواهر فوجدت أنّه استلم الأثداء ابتداء من سنة، 1882 حين أجريت أول عملية استئصال كامل لثدي امرأة، لذلك هو ثريّ الآن أكثر من أيّ شركة عالميّة تصنع الجمال أو تفكّر في تحسين الواجهات وتعديل ملامح الكون.

وحدها عبارة "من تحت برك[17]" كانت مقنعة للشّرقيين الّذين يبحثون عن نهاية معركة يتحوّلون فيها إلى ثيران نطّاحة، فلم يسألني أحدهم عن تمنّعي حين تمدّ الأيدي إلى الصدر. ولكنّني واثقة من ثورتهم لو امتنعت

17 برك في العامية الجزائرية تعني فقط ويقال أيضا بركا بمعنى يكفي أو توقف حسب السياق.

عن فتح ساقيّ. فالنهايات غاية جليلة في الحبّ والجنس، والثّورة، والحكم، والحياة دون أن يتوقف أحد عند تفاصيل دقيقة كان بإمكانها أن تكون أجمل من كلّ شيء، لكن الأفدح أن تكون النّهاية المأمولة هي الخلود دون التّوقف عند الخياطة الجيّدة للخرائط الّتي تؤمّنها. فالشّهوات الطّارئة والسّريعة لا تتكرّر، ولا تستعاد لحظاتها، وجلّ الّذين لم يتوقفوا أمام شفتيّ ورقبتي وحواف بطني لبرهة خسروني إلى الأبد وَخَبَوْا بداخلي.

بقي لي حبيب واحد هو موسى المقيم بالعاصمة القادم من وهران. ألغيت التّواصل معه عبر الواتساب والفايسبوك، وحافظت على الهاتف، وانخرطت في رومانسيته، وتعلّمت قراءة الشّعر بداية بنزار قبّاني ثمّ غادة السّمان الّتي انبهرت بكتابها "أعلنت عليك الحبّ". ثم أهداني كتب أوشو والشّاعر الفرنسي رينيه شار.

لم أكن مطّلعة على الآداب قبلا. لكن عاطفة موسى وصدقه جعلاني أقرأ كلما يقدّمه لي، وما ينصحني بتحميله من موقع عصير الكتب. صرت قارئة مدمنة على

كتب أضاءت جوانبَ من الحياة كنت أجهلها وأعيشها بالسّليقة.

أعددته آخر حلقة من مسلسل طويل حول حكايا الرّجال. وخشعت أمام إنسانيته حين أخبرته بمرضي وفقداني لجزء من أنوثتي، فقبِلني بحبّ وقال بأنّنا على مسافة واحدة من كلّ شيء، وما أصابني ليس حكرا عليّ والأهمّ أنّ تكون الرّوح نقيّة من كل علّة، وتحسّن من قدرتها على التّسامي عن الكراهية والشر. صمَتُ مطولا ولم أجد ردّا على كلام بعثر كلّ معتقداتي حول رجال عرفتهم وأطلقت من خلالهم أحكاما نهائيّة ترسّخ الرّيبة والشّك في كل اقتراب، موسى فرصتي الأخيرة، وأملي الّذي سأغلق به بوابة التمستُ من خلالها الحبّ، وقد خيّبتني مرارا.

تقدّم لخطبتي، وقد تمكّن من الحصول على منصب منشط ثقافي كونه خريج المدرسة العليا للفنون الجميلة ممّا يسّر وضعه المادّي. والدي رحب بحرارة ووعد بالمساعدة. وأولها تسهيل الشروط الّتي أثقلت كاهل جيل صار يقضي سنوات في التحضير والبحث عن شريك لا

تتوفر به معيارية التوافق والحب. بل يخضعه لفوائد ظرفية قد تحيل الحياة المشتركة إلى جحيم.

أبهجني وفاؤه. فقد كان بطالا ومحتاجا، وحين ابتسم له الواقع فكر فيّ .لم تجعله اللقاءات الحميميّة ينظر إليّ كسلعة مستعملة، ولم أتعجّب من تأجيله الدائم للمواقعة رغم أنه تلذّذها صوتًا، كان نبيلا وانتظر ما هو أجمل، ولم يطلب هزيل الجسد، ورماد الحرائق ليمضي، فكلّ نكاح لا تعلّق فيه الأعضاء ببعضها يبقى محاولة صغيرة لا تقنع انتظاري لرعشة تخلخل ما أشعر به من احتقان أسفل السّرة وبأعمق فص من الدّماغ، فكلما حلّت عليّ شهوة ليلية شعرت بمطرقة تقضّ جسدي، وتسير فيه لتطرق كل ساكن.

قبل موعد الزّواج بستّة أشهر داهمني وجع مفاجئ حيث فقدت القدرة على الأكل، وبتّ أستفرغ كل ما أتناوله مع صداع دام يومين متتاليين وعجز عن الحركة من فرط الوهن.

تذكرت مرضي وخلته عاد ليهدم كل شيء. كيف سأخبر موسى بما يحدث، وقد شعر بصوتي مهتزّا على الهاتف وسألني أكثر من مرة عن صحّتي وسبب ضآلة تفاعلي معه دون أن أجيبه.ع وّدته على ضحكاتي الّتي غيرت منها ولم تبق داعرة، خففت حدّتها فصارت دافئة كصوته، المرض عطّل شغفي بالسّؤال عنه كل ساعة وإرسال صور ما أعدّه من طعام، شعر بي رغم محاولات التّغطية والتّقليل ممّا أنا فيه بادّعاء التّعب، والحاجة للنوم.

زرت طبيب الأمراض الداخليّة. فطمأنني أن الأمر لا يعدو كونه التهاب فمّ المعدّة وعسرا هضميّا شفيت منهما بعد أسبوعين من العلاج، وفي الموعد الأخير طلبت من الطّبيب إجراء فحص لتبين وضع الخلايا السّرطانيّة الّتي سبق علاجها.

سألني عن تواريخ المرض. تحفّظ ووجهني نحو طبيب الأورام الّذي اطلع على ملفي، وقال بابتسامة: مرت ستّ سنوات على علاجك، تتوقف المتابعة الطّبية وربّما انتهت حكاية السّرطان...سحبته من مئزره. وضعت فمي على فمه، قبّلته رغم دهشته، فشعرت به

يسترخي ويطلق لسانه، لم أتوقّع بشرى مشابهة دسست يدي اليسرى داخل صدره العريض واليمنى وضعتها على رقبته، تماهى معي وضمّني بعنف وعطش. لم أجد حرجا من غياب نهديّ أمام طبيب متعود على استئصالهما نزعت ملابسي وقد تراجعت نحو طاولة العلاج، تركت سترة فوقية وتخلصت من كل شيء، جواربي وأكسسوارات الشعر وساعة متوقفة، بدا جسدي ساحرا، قرأت ذلك في عينيّه، تأوهت بحرارة البشرى الّتي استحق من أجلها مضاجعة أسالت لعابه وجعلته يصرخ إلى حد أغلقت فيه فمه، مخافة أن ينفضح أمام مرضى ينتظرون دورهم.

قطعت توبة أعلنتها بعد خطوبتي، لم أجد تعبيرا عن فرح عارم اضطّرني حماسه إلى الاستعانة بالجنس للوصول إلى نشوة قصوى حرمت منها وقتا طويلا، فكلّ اللّذائذ كانت محدودة مقارنة بلذّة الخروج من معركة السّرطان الطّاحنة بمضاجعة جعلتي أتصالح مع اشمئزازي من الأطباء الّذين عالجوني، وكانت وجوههم لا تحمل إلاّ الحزن والمتاعب.

الآن أنا حرّة من مرضي ومن نهديّ، فهنيئا لما تبقى من جسد سيكون سيد ليالي حارقة أقضيها مع موسى متطهّرة من التّشبث بحياة كشفت لي عن وجهها الأسود وسامحتني؛ لأنّني برهنت عن حبّي لها بشغف إضافي بالجنس، بالشكولاتة، بالضّحك، بلقاء الأصدقاء وبالسّخرية من الهمّ وكل ما يحول بين الإنسان والسّعادة.

**- وها قد سمعت الحكاية يا التايه، أنشرها وحدّث بها الآخرين حيثما رحلت وسلم على الّذين يكافحون في كل بقاع القهر والخوف، اعتبرها وصية، لقد وصيّتك. عدني أن تفعل .**

**- وعد، وعد..**

# هيام

قَبلت خوض مغامرة قضى يوسف أشهرا يقنعني بها، وتوقّعتها تجربة مرحة تنتهي بسرعة، وتكون فرصة لإنهاء فضولي اتّجاه رغبته الملحة في التقرّب منّي. وفرصة له ليعبّر أكثر عما بدأه في قاعة التّدريس بنظرات تؤرّقني. وتعقد مشيتي أثناء الشرح والمرور بين الصّفوف وصولا إلى مصارحة ناريّة حملت ما يزعم أنّه كتبه خلال أشهر طويلة وهو يحاول إيجاد منفذ يمكّنه من الدّخول معي في علاقة لم يحدّد صفاتها، ولخصّها في تواصل لا يكون أكاديميّا، ومعرفيّا كبقية الطّلبة ممن تجمعني بهم علاقات عمل وبحوث.

لم يخطر على قلبي أنّ الوضع سيتعقد ويصبح حبّا وأنا متزوجة وأستاذة بالجامعة لي من الوقار ما يجبرني على الالتزام اتّجاه الآخرين بكثير من الضّوابط، فلا أحد يفرّق بين الحياة الخاصّة والعامّة، وقد يصبح الحب تهمة حقيرة في ظلّ ارتباطي برجل آخر. فلن يتفهم أحد رغبات القلب إذا انفتح على حبّ جديد، أو عاطفة. لم يكن مخيّرا حين تماهى مع خيوطها الأولى فتحوّلت إلى مشروع مجهض مسبقا.

نجوت من رصاصة أطلقها عليّ زوجي بعد غيبوبة دامت شهرين، أمّا يوسف فسبّبت له طلقة ثانيّة عرجا جعل مشيته رهينة بطء وتعثّر دائمين.

نجونا بأعجوبة ليلة اكتشف أمرنا خالد وقد عوقب بفصله من جهاز الأمن لاستخدامه السّلاح، واتّهم بالقتل العمدي بعدما شرع فيه بإطلاق النار قاصدا قتلنا. وقد استفاد من التّخفيف كونه صدم بنا متلبّسين بالزّنا وفق قانون العقوبات الجزائري الّذي جعله جريمة مرهونة بزواج أحد الطّرفين، وعلم الآخر غير المتزوج أو بزواجنا معا، فحكم عليه بعشر سنوات سجن نافذة وحكم عليّ بسنتين، وعلى يوسف بسنة لاعتبارات رآها القاضي في نوع العلاقة بما أنّني أستاذة وهو طالب لا يتجاوز عمره آنذاك الثّالثة والعشرين. وقد أثارت قضّيتنا الرّأي العامّ داخل الجامعة وخارجها، ووجدتني بعد مغادرة السّجن غريبة، ومحتقرة من عامة الناس. ومصدر إلهام للخائفات من التّورّط مع رجال أقلّ منهن سنّا.

علمت فور خروجي أنّ روائيّا يدعى رفيق طيبي قد كتب قصّتنا مفصّلة في رواية عنوانها "الموت في زمن

هشّ"، فكرت في مقاضاته بعدما كتب قصّة سمعها من طرف واحد، وقد كشف أسراري ولقبي ولقب زوجي السابق وعنواني، وكلّ ما يمكنه مضاعفة محنتي بمرحلة يأس من ترميم حياتي، لكنّني تراجعت.

سأورّط يوسف الّذي روى ما حدث وتدخّل في نهاية النّص بصوته وشاركه الكتابة، لمته على عدم استشارتي حين قرّر تقديم حكايتنا لروائي فضولي، لكن ردّه غير المقنع جعلني أسكت، وأتخلّى عن رفع الدعوى. فقد قال إنّ خساراتنا أكبر من رواية تلقت من النّقد والقدح ما يكفي لحرقها، وأنّها غير مهمّة حين نقارنها بما ينتظرنا من مهام تتعلّق بتجديد حياتنا وبنائها، ورفيق طيبي نفسه أعلن تخلّيه عن رواية ارتبطت بالبدايات، ورأى أنه تسرّع في نشرها، وقد اطّلعت على كتاب جديد أصدره بعنوان "أعراس الغبار" لذلك لا يصحّ أن نقاضيه، والواجب أن نلتقيه ونشجّعه على الكتابة مادام مؤمنا بها كحلّ لتعاسات تحتاج قراءة الأدب، والنهل من رؤيته المختلفة عمّا يقدم في المدارس، والمؤسّسات، ووسائل الإعلام.

حكى لنا حين زرناه في بيته بمدينة برج بوعريريج عن محن الكتابة في العالم العربيّ، وصعوبة التقدم في محيط مليء بالمهملات والمتاريس، خاصّة ما تعلّق بالجوّ النّفسيّ والوضع السّياسيّ، وأزمات المسحوقين الّذين يعتبر نفسه واحدا منهم كونه يخاف كل وضع طارئ سيتحمّله الضّعفاء وحدهم، ويفرّ الأقوياء الّذين صنعوا مساحات تقيهم شرورهم.

أظنّه بسّط الأمور. فقد كان عامّا وسطحيّا مقارنة بالكتب الّتي وجدناها عنده، بعدما استأذناه في الإطّلاع على مكتبته حين همّ بالتوجّه إلى المطبخ ليعد قهوة، فقد حدثنا عن قهوته المعروفة بلذتها ومدحِها من كلّ متذوّقيها، وقرأ لنا من كتاب ذاكرة للنسيان لمحمود درويش مقطعا سجّلته بصوته واحتفظت به على هاتفي جاء فيه : **القهوة هي مفتاح النّهار. هي أن تصنعها بيديك لا أن تأتيك على طبق لأنّ حامل الطّبق هو حامل الكلام والقهوة الأولى يفسدها الكلام الأوّل؛ لأنّها عذراء الصّباح الصّامت، الفجر نقيض الكلام، ورائحة القهوة تتشرّب الأصوات، ولو كانت تحيّة رقيقة مثل صباح**

**الخير وتفسد؛ لأنّ القهوة مرآة اليد، واليد الّتي تصنع القهوة تشيع نوعيّة النّفس الّتي تحرّكها، وهكذا فالقهوة هي القراءة العلنية لكتاب النفس المفتوح والسّاحرة الكاشفة لما يحمله النهار من أسرار. لا قهوة تشبه قهوة أخرى، فلكلّ بيت قهوته، ولكلّ يد قهوتها؛ لأنّه لا نفس تشبه نفسا أخرى، وأنا أعرف القهوة من بعيد تسير في خط مستقيم في البداية ثم تتعرّج وتتلوّى، وتتأود، وتتلوى، وتتأوه، وتلتف على سفوح ومنحدرات تتشبث بسنديانة، أوبلوطة وتتغلب لتهبط الوادي، وتلتفت إلى ما وراء، وتتفتت حنينا إلى صعود الجبل، وتصعد حين تتشتّت في خيوط النّاي الرّاحل إلى بيتها الأول.**

يوسف شاعر يعرف الكتب، وقد وصف بدهشة ما رأيناه من عناوين. أما أنا فاكتفيت بقراءتها دون خلفيّة معرفيّة إلاّ القواميس، وكتاب ألف ليلة وليلة، وقصص الأنبياء، بينما انشغل يوسف بأعمال ايزابيل الليندي وروائي تركي يدعى أورهان باموق. وحين لاحظت شغفه بها حذّرته بشدّة من التّفكير في استعارتها، فقد

علمت أنّ المثقفين ينظرون للإعارة بقرف، ويخشون نقصان مكتباتهم من قطعها ما عدا نفرا منهم رأيتهم يهدون الكتب بالقرعة على الفايسبوك، وكان يوسف يشارك فيها ولم يفز يوما.

شربنا القهوة. لم أتعوّد الوقوف أمام مذاقها، فتناولها ارتبط بالحليب أو الضّيوف، أو فنجان صباحيّ أشربه بسرعة، وأمضي جاهزة لازدحام النّهار، قهوة ثقيلة وطبيعيّة لم تضَف لها مواد للحفظ أو التّركيز، ولم تعرض على شاشات التّلفزيون، ولم يروج لها، محمّصة عند بائع قديم، يكاد المحل ينهار عليه، ومرحيّة بيد رفيق طيبي الّذي لم يبالغ حين قال بأنّ قهوته ممدوحة. ارتشفناها بهدوء، وبتحليّة محدودة، فلم يتجاوز سكرها ملعقة وأسمعنا مقطعا من رواية فرنسية لم أحفظ اسم كاتبها وتذكرت فقط سطرها الأخير يقول:

**ne suffit pas d'affirmer les choses.**
**Il faut les prouver.**

غادرنا. قضيت الطّريق أفكّر في براهين يوسف على حبّه لي. أنقذني من الشّظف. فقد رفضتني عائلتي بعدما سجنت. وبلّغوني عدم حاجتهم لعودتي من خلال أبناء

عمومتي الّذين زاروني مرّة واحدة وانقطعوا! والجامعة فصلتني. كان مصيري واضحا. أتشرّد في الشوارع، أو أتنقّل بين بيوت أصدقاء قدماء، تذكّروني دائما، وزاروني خلال المحنة. الظّروف وحدها تظهر الأصدقاء الحقيقيين. وتسقط البقيّة من القائمة. لا أدري ماذا كنت سأفعل لولا احتضانه لي!

خرج قبلي. وظّفه أحد معارفه سائقا بفندق معروف. ومنحه راتبا مقبولا يزيد بمضاعفة ساعات العمل؛ ولأنّه لا يفكّر في شيء عدا اكتساب قوّته بالشّغل من السّادسة صباحا إلى السّادسة مساء أو الثّامنة، والمبيت مجانّا في جناح الموظّفين بالفندق وكتابة الشّعر، فقد كوّن رصيدا ماليّا واستقبلني فور إطلاق سراحي، واستأجر بيتا بسيطا بضواحي العاصمة قضينا فيه أيّاما، صرت فيها ربّة بيت تنتظر موافقة أهل يوسف لنتزوّج رسميّا، ونصبح حرّين أمام العالم.

حبّ لا يشبه حكايات بسيطة تتعلّق ببداية حالمة ونهاية فرحة. لم أصدّق تعلّق طالب بأستاذة تكبره بعشر سنوات. قلت هوس مراهق سيضطّر في النهاية للتخلّي

عنه، وقد استمرّ هذا الشّك حتى رأيته أمام بوابة السّجن في انتظاري مستأجرا سيارة تعفينا من النقل الجماعيّ. كنت قد أخبرته بموعد إطلاق سراحي. فماذا لو غاب ووجدت الفراغ في انتظاري؟ أطرح هذا السّؤال كلما خلوت بنفسي، وحاولت تفكيك دهشتها من حياة تقلّب الموازين فجأة وبسرعة، بكيت بحرارة يومها، رأيت يوسف الرّجل بعدما ذاب الطفل في قلبي، واستجمعت كل طاقتي لأعصره على صدر صار نحيفا من طعام السّجن. قضيت لياليَ أنظر إليه نائما غير مصدقّة بأنّ الطفل النّاعم بإمكانه القيام بفرائض عاطفيّة تخلّى عنها من هم أكبر منه سنّا وقدرة.

كلما ناجيت نفسي لمتها على عدم طلب الطّلاق والزّواج من يوسف بسلاسة، دون رصاص وسجن وعذاب البطالة والاحتقار. تأخّرت في اتخاذ القرار حين كنت ذليلة عند خالد عون الأمن الّذي لم يصدّق زواجه من أستاذة جامعيّة، فحاول قدر المستطاع احتقاري تلطيفا لجرح يظهر صديده كلما قال باستهزاء: "من تظنّين نفسك؟". لينتهي النّقاش بالبزاق والضّرب، فأصمت

وأمضي نحو فراش قاطعني فيه، لأبكي بحرقة على مصير كان ممكنا تفاديه لولا غباء قلب جعلني أصدّق وعودا مخروقة وأقاويل رومانسيّة كان يدر عليّ بقناطير منها في خطوبة لم تستمرّ أكثر من شهرين. مدّة غير كافيّة لتكوين فكرة عميقة عن شخص يفترض أنّني سأقضي معه بقية العمر. قد نحتاج لسنوات لاكتشاف خبايا رجل مسكون بالعقد والمخاوف غير المبررة ضد امرأة خرجت من بيت والدها تحمل حقائبَ من الأحلام، تنزلق من قلبها الواحدة تلو الأخرى مع تقدم الأيام لتنتهي منسية وتتحول إلى رجاء أخير يتعلّق بالهناء والبقاء بأدنى ضمانات الكرامة.

قبِلته بدل انتظار الأفضل أو البقاء عزباء خاصّة أنني كنت أحضّر لمناقشة رسالة الدّكتوراه، ومستقبلي كان واضحا ومفتوحا على النّجاح، وسمعت لآراء الآخرين في وقت كان ممكنا أن استمع فيه لقلبي، فوحده سلطان حياتي الّذي يتحمّل الخيارات.

حين وجدتني مرميّة في سجن قاسٍ لم يزرني أحد من الّذين قرّروا زواجي، أو من سمّموا يومياتي بسؤالهم عن

الزّواج! ومن صوّروا لي العنوسة شبحا رهيبا، لأكتشف لاحقا أن الشّبح هو رجل معزول عن كل سياقات الحرّية والحبّ والصّدق.

أمّي تتصل بي سرّا لتطمئن عليّ بعدما هاتفتها مخافة أن تموت حزنا. وحدها فتحت قلبها عليّ ولم تغلق في وجهي أيّ منفذ للحب. كانت مجبرة على تحمّل غيابي أمام أب لا فرق بينه وبين خالد، فكلاهما يحملان من العقد ما يكفي لقتل كلّ محبّة ممكنة وأية فرصة للتصالح مع الذات الّتي نشأت على الشكّ في كلّ شيء، والتّخوّف من أوهام تسكنها، عنتريات الّذين فشلوا في إشباع يقينهم بأنّهم كبار ويستحقّون التّمجيد. فوالدي لم يفرق يوما بين ضبّاط الجيش الّذين كانوا تحت تصرّفه، ويعاملهم كالعبيد وبين عائلته ومحيطه. وقد وجد نفسه في العراء فجأة بعد الّتقاعد، حيث نفدت التّحايا الّتي كان يتلقاها وشحّت زيارات الناس له، لذلك ازدادت غلظته، وصار يسبّق العنف على الحلول الممكنة لمشاكل يوميّة أغلبها تافهة.

كبر اهتمامي بالمضطهدات والمنسيات، وقد صرت منهنّ. تُطرح أمامي أسئلة معلّقة عن الآجال الّتي بإمكاننا أن ننتظرها لينتهي هذا الوضع الاجتماعيّ الغريب، فأجد التّقاليد تمزّق فرص النّظر إلى الأمام في خضمّ توحش الماضي وسطوه على المستقبل بأفكار تعامل المرأة على أن دورها هو تنظيف الإسطبل، وحلب البقر وخياطة الملابس والخضوع كل ليلة لذكر لا يسأل عن شيء. في وقت صرت دكتورة أحاضر وأقدم دروسا بالجامعة، وفي البيت امتداد لامرأة بإمكانها تقبّل وضع يعود لما قبل المواثيق الدوليّة لحقوق الإنسان.

زميل سابق بكلية الحقوق والعلوم السّياسيّة قُبِض عليه متلبسا باعتداء جنسي على طالبة سنة أولى قانون عام. تم إقناعها بالصّمت وانسحبت خوفا من توقيفها عن الدّراسة من طرف أهلها بذنب لم ترتكبه واستمرّ يترأس عشرات الجلسات في الملتقيات الوطنيّة والدّوليّة وفي مناقشة رسائل الماستر والدّكتوراه، وكرُّم على أنه كفاءة ممتازة تقدّم إضافة للجامعة، وحين علم عميد الكلية ورئيس الجامعة بدخولي السجن رفضوا تدخّلات

زملاء أوفياء وجدوا ثغرات تمكّنني من المحافظة على منصبي، فما حدث كان خارج الجامعة ولا علاقة له بها لكنّهم أصروا على طردي بحجج لا يشمل تطبيقها الجميع بمعايير تتناسب مع عالم المصالح والرؤى الضيقة المتعلقة بالانتماء والجهة والمكانة المالية والحزب السياسي.

البيت مزدحم بمشاعر حارقة. يضمّني كلما رآني ولا أكتفي من تقبيله حيثما اقترب. نعيش تعويضا لما تبدد من وقت وأحلام بين الانتظار والمغامرة والسّجن. كنا نسمع أنّ السّجن للرجال في مثل شعبي ارتبط بثورة التحرير. لكن سجن النساء لم يتحدث عنه أحد. كم من امرأة قتلت قبل وصولها إلى القضبان الحديدية الباردة! أعداد تحصيها جرائد لا يهتم بها أحد.

فكرت في مغادرة بلد لم يتحملنا عشيقين وأصبح خطرا علينا. فخالد الّذي قضى ثلاث سنوات من السّجن سيقضي السبعة المتبقية، ويخرج بحقد دفين يدفعه للبحث عني كي ينتقم.

كان سيعيش مرتاحا لوحكم عليه بالمؤبّد، بيد أنّ معرفته للأحكام الّتي صدرت بحقنا أنا ويوسف وبقاؤنا

حيّين سيجعله مجنونا بهوس الإخفاق في تصويب جيّد بمسدس قضى سنتين يتدرّب عليه، وسبق أن استخدمه في حوادث تتعلّق بالتّهريب والمخدّرات.

أشفق عليه متهمّة نفسي بتحمله. ليتني خلصته من عذاباته وخلعته ومضيت. هذا الحلم المتأخر يكاد يقضي عليّ. لم ينتبه لنفسه يوما وهو يخوض معارك نسوية تافهة! كنت أجمل من اللواتي يرسلنَ له صورا على بريده الالكتروني. كلام لم أسمعه يوما كان يرسله بتعابير شعبيّة وفصيحة على الإيمايل والسكايب، حتى في أقصى لحظات الارتياح في بدايات علاقتنا جاملني بكلام ضحل لا يشبه ما قاله للأخريات: راكي باهية، أنت حلوة. ويمتطيني كأيّ مركبة حديديّة، وينزل مثلما يشتهي دون مراعاة لوجود جسد بقلب وروح ورغبات لها بداية ونهاية.

لا يحقّ لي الآن إلاّ التّمتّع بحبيبي يوسف. نفدت الحجج الّتي تجعلني أحاسب نفسي على ما مضى، فقد جلدني الضّمير بما يكفي وتذكر الماضي خيانة لحاضر جميل. بإمكاننا الآن أن ننخرط في دواخلنا لنرمّمها من الآثار، فما ينتظرنا يحتاج إلى جهود عظيمة، والحلم

الصّغير الّذي انتابني قبل سنوات بات يداهمني يوميّا فأتخيّله مجسّدا، ولم أصارح به يوسف لظروف نعرفها.

طفل يشبه هذا الأسمر الطّويل. أحمله في بطني يلطف حرائقي الّتي لم تخبُ منذ رأيت يوسف أمام السّجن. أنسخه وأعتني به لأرى هذا الحبيب يكبر أمامي في شكل آخر، أستلطف تقلّباته في بطني، وأبكي كلما تكوّر ووضع يوسف أذنه على بطني منصتا. حبوب منع الحمل صارت مرهقة، وقد تخدعني بحمل لم أحضّر له، فطالما رغبت في أن تكون لنا ليلة نعلن فيها رغبتنا في الإنجاب أكون في أيام الإباضة وفي عزّ الاشتهاء، فنعمد إلى ليالٍ بيضاء نتصالح فيها مع الأعطاب.

أنا عذراء الآن بعد فراق طويل وسجن انغلقت فيه حميميّاتي على نفسها، وانكمشت. بل عذراء قبل يوسف حيث اشتهيت صرخة على فراش، وواقعا بدل خيال يفيض بالأفلام الإباحيّة الّتي يتجلّى أمامي أبطالها، كلّما امتطاني زوج لم يحاول يوما تفهم مشاعري، فأغمض عينيّ وأضيع، لا فرق بينه وبين العادة السّريّة!

سعيت لأعمل. دكتوراه في القانون بسوابق عدليّة تضعف حماسي وشجاعتي في طرق الأبواب. ورغم ذلك طبعت سيرتي ووزّعتها أنا ويوسف في أوقات فراغه على المؤسّسات. قلّص ساعات العمل رغم الحاجة. رغبته في البقاء معي لوقت أكبر جعلته يراجع توقيت عمله. انتظرنا شهرا. فتلقيت اتّصالا من شركة بيجو للسّيارات وبعد جلسة اتفاق، صرت مستشارة قانونيّة في الإدارة المركزيّة. مكلّفة بمتابعة الجانب القانونيّ والإجرائيّ لكلّ الصّفقات والتّحويلات الماليّة.

صار ممكنا أن أحلم وقد وافقت عائلة يوسف على زواجنا بعد صبر، شرط البقاء في العاصمة والالتزام بأخفّ الإجراءات كحفل صغير بقاعة وخطبة لا يحضرها إلاّ خمسة أشخاص من عائلته. وقد فتحت هذه الطّقوس جرحا لم ينغلق. فأنا بلا عائلة، إذ تنصّل الجميع من انتمائي إليهم، ومرّت سنوات محت أثري.

وحده عمي رابح وزوجته وافقا على حضور ما يشبه الخطبة. فقد كانت جلسة في بيتنا الّذي نعيش فيه أنا ويوسف، وتمّ عقد الزّواج المدنيّ بشاهدين أحدهما بائع

الورود وسط العاصمة الّذي علم بقصّتنا من خلال صداقته ليوسف، وزميل بشركة بيجو، وقد كانا مدعوين لحضور جلسة أقيمت في البيت، حيث قرأ عمّي رابح الفاتحة، وتقدّم باعتباره وليّا، وحدّدا مهرا بسيطا منحه لي يوسف لاحقا، وعوّضته مبلغه دون أن يشعر في مصاريف أخرى تكفّلت بها. فلم أكن بحاجة لأن يمنحني مالا بعدما منحني قطعا من قلبه، لولا حتميات الطّقوس الدّينية.

تناول الحاضرون ما جلبناه من حلويات وفواكه وما أعددته من عصائر، وافترقوا تاركين لنا اندفاعا جديدا نحو بداية أخرى تجعلنا قادرين على التّقدّم. وكسب جرعات أخرى من الصّبر في مواجهة الحاجة للاندماج والتخلّص من غرابة نحاط بها من أناس لا يجمعنا بهم شيء سوى الفضاء الّذي نتقاسم حرّية العيش فيه، دون أن تحترم هذه الحرّية الّتي تتيح للآخرين تنبيه بعضهم حينما يرونني قريبة من يوسف متأبطة ذراعه بشكل حميميّ، فأرى في عيونهم سخريّة من كبر سني مقارنة به فرغم العناية بجسدي يبقى طفلا بملامح بريئة. وأشيح

أنا بعذابات الماضي وتعب محاولات التّخطيّ الّتي أعيشها بعمق ورغبة حارقة في استخراج الذّاكرة من جوفي ورميها في سلة المهملات.

اشتريت سيارة بالتقسيط. استعنّا بها على متاعب النّهار في مدينة واسعة بمواصلات بطيئة. لقد خلّصت يوسف من دوام مكثّف يرهقه بسبب رجله العرجاء من أثر رصاصة الcrach mp 433. تتعبه فيتحملها صامتا. لا يتذمّر كي لا يفتح ذاكرة ليلتنا الّتي تحوّلت إلى فاجعة. ظننت أنّنا سنقضي ساعات ملكيّة، نستمتع بما لم نعهده، كان طفلي كلما اختليت به. وخطأ المسدس في جهة التّصويب كان فرصتنا. لولا بقاؤنا أحياء معا لانتحرت أنا أو هو الّذي سبقني إلى العشق، ودفع ثمنه بإعاقة أبديّة. لا أستطيع تعويضه مهما فعلت عن مشيته الأنيقة الّتي ضاعت. كنت أعرفه من بعيد عبر خطواته الواثقة، لم يكن من الضّروري أن أدعوه إلى بيتي ليلتها كنت قادرة على تأجيل اللقاء أو اقتراح فندق بعيد والهروب به تحت أيّ مبرر يغطّي غيابي عن البيت. ثمن اللّهفة باهض حين تخذلنا المواقف، ولا تسير مثلما

نشتهي. عليّ أن أنسى تلك الليلة أيضا، وأخرجها مني لأنّ اللّيالي الّتي نعيشها الآن لا تضاهيها أعمار قُضِيت في الخوف والسّجن.

زوّدت المنزل بأثاث وأطقم من الأواني بعدما كّنا لا نملك إلاّ ملاعقَ وصحنين أو ثلاثة، وفراشا ننام عليه في منزل صغير مبلغ إيجاره معقول مقارنة بمنازل أخرى في مدينة تخنقها أزمة سكن حادّة منذ استقلال البلد. وسّعنا البيت برغبة العيش فيه، بالحبّ وخلق ما نشتهي دخوله من فرح تموّله مشاعرَ جاهزة للتحرّك، حيث تندفع حرارة معلقة بلقطة واحدة أو مسافة صغيرة بيننا تكفي لحبّ مفتوح يعيش أفعاله بلا توقّف.

نستحمّ ونمضي نحو فراشنا الأرضي مفضلينه على سرير جديد. نلعب ونتقلّب، طفلين يمرحان. عرفَ نقاط الضّعف وصار يُمسّد وجنتيّ، ويسحب شعري ضاحكا، ويدغدغ قدميّ. وحين يشتعل اللّيل يداعب حلمتيّ، ويشدني بقوة من حواف بطني، فأسترخي ونغرق في لذّات يوقفها الفجر. نستحمّ ونصلّي وننام. وقد تعوّدنا على اللّيالي البيضاء في نهاية الأسبوع.

أثمرت السّهرات انقطاعا لعادتي الشّهريّة، فزرت الطّبيب، وأجريت التّحليل، وانتهى بابتسامة الممرّضة وقولها: "مبروك".

بكيت بحرارة بعد خوف من سنّي وأنا أطرق السّابعة والثّلاثين. عدت إلى البيت بعدما منحت الممرّضة ألف دينار إضافيّة نظير البشرى، وقطعت الطّريق مشيا، إذ نسيت سيارات الأجرة والاتّصال بيوسف الّذي كان سيجيء بسيارة الفندق أو سيارتنا.

كيف سأخبره بمسرّة يستحيل مرورها ببساطة؟ لابدّ أن نحلّق ونحلم بطفل يكبر ويتعلّم الشّعر، ويحبّ ويجنّ متى وجب الجنون. توقفت عند محلّات ملابس الأطفال. خيارات مدوّخة وحيرة بين شراء ملابس ولد أم بنت! سرّا كنت أحلم بطفلة أجعلها نجمة حيثما وجدت فتعوّضني عن انكساراتي وأجنّبها خيبات وقعت فيها لغياب صدر ألجأ إليه دون ملامة، فأمّي على حنانها ترفض انتقاد الزواج أوالتهديد بالطّلاق. يحتكرها زمن كانت المطلّقة فيه لعنة، لذلك سأجعل ابنتي لا تعرف هذه المآسي سواء أنجبها هذا الحمل أو حمل آخر. لن

أتوقّف عن ولادة حرمت منها إلى عمر متقدّم، وسأنجب من يوسف فريقا دون اهتمام بالعواقب.

اشتريت ملابس للجنسين، ووصلت قبل يوسف بساعة ونصف. طرحتها على السّرير، وأعددت الكسكسي وهيّأت البقلاوة وقلب اللّوز، واخترت الكوكا وعصير رامي، وانتظرته إلى السّادسة في أمسية شتوية مرتدية جلّابة سوداء جعلها بياض وجهي وساقيّ بهية بتمازج لونين طالما صنعا الأناقة وأضفت إليها بخّات من عطر shalimar.

دخل يحمل خبزا. سحبته نحو المطبخ ونزعت حذاءه ساقته يدي نحو الحمام حيث الماء ساخن والمنشفة جاهزة. استحَم وخرج لامعا، فذهبنا نحو غرفة النّوم بابتسامة تشي بانتظاره لمفاجأة.

العشاء بغرفة النوم استثناء وعلى طاولة جانبيّة حلويات ومشروبات. تاه في ملابس الأطفال المرتّبة بعناية على السّرير، والدمى الّتي وضعتها متأخرة وككل الحالمين الّذين كتبوا سيناريوهات الأفلام والرّوايات رحنا ننظر في عيون بعضنا. سبقتني ضمّته. شهقنا

وقضينا الليل نقلب قوائم الأسماء لاختيار اسمين وفشلنا أيّما فشل، ونمنا ساعات وفتحت عينيّ على نظراته ابتسمت فقال :

هيام حبيبتي وحدك ستبقين سحر البداية والنهاية، لم أشعر لحظة واحدة أنّ القلب يحنّني على التّوقف، وأنا أسير بلا خارطة في حبّك، وأقدامي تتقافز على كل المطبّات الّتي وُضِعت في طريقنا بعلم، أو بجهل ممن لم نفكر في أذيتهم يوما، الوقت كان أقسى من النّاس، علينا وما صبرنا من أجله لم يذهب سدى، وها نحن اليوم ننتظر سعادة قادمة سيحملها هذا البطن الّذي تدرّب على حمل رأسي في ليالي التّيه حين كنتِ تنامين، وأبقى محملقا أفكر بواجباتي اتّجاهك، فمهما فعلتِ من أجل إقناعي أنّنا شركاء في البيت، وأن تحمل بنائه مهمّتنا، يبقى الضّمير الدّيني الّذي أزعم أني قمت بتحييده في العديد من المسائل، يعمل بعمق، ففي قرارة نفسي أقول دائما : أنا مكلّف بالإنفاق عليها، والقوامة لي، وعليّ أن أريحها من كل شيء يوما ما. لذلك تعذّبت برؤيتك تسعين بقوة للنهوض بحياتنا، لقد فهمت العديد من الحكايات الّتي

كنت أسمعها وأسخر من تفاصيلها، لم يكبر وعيي اتّجاه الحبّ، وتجلّياته القاسيّة إلاّ حين جرّبته. حّبنا الّذي عانى الرّفض والخوف صار رهينا للتقدّم وللكتابة، وعليك أن تثقي أنّ نصّك الّذي سأنحته لن يُضاهى، وأقول هذا بحماس في لحظة انتظار لمن ينوب أو تنوب عني بعد جيل أو جيلين في حبّ الشعر وكتابته، أريد للولد الّذي سيأتي أن يحمل وهجك وشعريتي، وأن يفوقهما شغفا بالحياة. ومن خلاله سأحبك أكثر وأتماهى مع كل فعل وقول بإمكانه المضيّ بنا معا نحو سماوات تُفتَح للعاشقين تحت كل سقف.

أسحبه نحوي، وأستعيد صورا من بداياتنا، تنبعث حرارة متقطّعة بصدري، وأقبّله بلهفة عاشقة في العشرين لم تتحرّر بعد من دوخة القبلة الأولى، ونبقى على فراشنا متعانقين دون انتباه للوقت ولا العصافير الّتي تركناها مغطّاة كي لا تتعرض للضّوء بعد غروب الشّمس وحرمناها ضياء الصباح، كلّ شيء يصير مؤجلا في لحظات تتزاحم الأرواح على قبض الأنفاس والملامح وكل ما يبهجها.

سبعة عشر أسبوعا عرفنا في نهايتها أنّ ببطني أنثى. سررت وشعرت بفرح يوسف منقوصا. فقد تمنّى ذكرا. اكتشفت ذلك من خلال تركيزه على أسماء الذكور. تمسكت بخيار إنجاب مفتوح ولتسقط شعارات تنظيم النسل، لن يكون أبنائي عالة، إذ سيصبحون شعراء وشاعرات، وأساتذة وأطبّاء، وسيكونون أصحاب شأن.

تعاظمت متاعبي، ودخلت عطلة مرضية مطوّلة. مفاصلي صارت لا تطيقني. انتفاخ القدمين وصعوبة الحركة. التفّت علي أوجاع الحمل وصعوباته وأنا بعمر توقيف الإنجاب، فبعد الخامسة والثّلاثين يصبح خطرا. تحدّد موعد الولادة، واستحالت طبيعيّا لكبر ووضعية الرّأس داخل الرّحم.

من ستشبه؟ أنا أم يوسف أم ملامح صحراويّة كجدّتها أو أمازيغية كأم يوسف؟. تمنّيت ألاّ ترتسم خيباتنا على وجهها وتأتي متعبة. ستكون عاصمية تحتفظ بوهج الشرق وكرمه وشراسته وتأخذ من هدوء البحر ودفء اللهجة، كم سرت على شواطئ تيبازة والعاصمة لكنها عصية رفضت أن تستدير، وتتقلص لتخرج

طبيعيا. سيبقى وجع العادة الشهرية ممتدا حتى يحل يئسي فينهيها. تمنيت الولادة ككل النساء لتكبر مساحاتي السفلية ويصير الدم سلس التدفق، فلا يلزمني حقنا ونوما وشراسة في التخاطب. قبل الزواج كان يغمى عليّ كل شهر وأحمل للمستشفى لضيق الغشاء. ومما شجعني على الزواج الأول رغم ضحالته هي ضرورة فتق غشاء سبّب حرجا شهريا، وقد كلف زوجي السابق ليلتين من امتطاء انتهى بتدخل جراحي.

20/ 10/ 2015.

تاريخ مفصلي. سنحتفي بصراخ رضيعة لن يسعفني المخدر لأحملها. خشيت الموت، ربما هذا طريق مختصر يوفر عناء الولادة الطبيعية لعلني سأنجو من أوجاع ترهبنا منها النساء ونحن صغيرات. ويمر كل شيء بسلام وأحيا لأحب أكثر.

دخلت قبل الموعد بليلة. التحاليل، ملابسي، ما أشد به شعري، بانتوفة الصوف. مصحة خاصة ببرج الكيفان استقبلتني بدفء بعدما رفضت التوجه إلى المصحات العمومية مخافة نهاية مأساوية.

يحين دخول غرفة العمليات، أخدر كليا. أمضي نحو الضباب، أرى كل شيء أبيض وباقة زهور قطفتها وأنا طفلة بعمر خمس سنوات.

ملامح الطبيبن تتجلى. الشعر الأبيض لعمي سليمان جارنا في أول حي سكناه بجيجل، حلوى حفظت ألوانها وعلق مذاقها بفمي حين كنت في الخامسة أشتريها من دكان سي قدور ويمنحني واحدة عربون محبة لأعتني بولده الّذي يصغرني بعامين. تعلقت به. أنهض صباحا. أطلبه وأقضي ساعات أتجول به في الحي وأعيده منتصف النهار. أتغدى في بيتهم وأنام أحيانا، فلا يبحث عني أحد! يعلم الجميع تعلقي بزوجة سي قدور. قبائلية لها قوام ساحر وعينان عسليتان ضيقتان. تستمد حمرة وجهها من زيت الزيتون واللبن والحياء.

صرنا شبابا وفرقتنا المساكن. فوجئت بعد سنوات بمقتل أسامة بجبل تاكسنة على يد الجيش بعد انضمامه لجماعة مسلحة أواخر التسعينيات. لم أتقبل تحول الطفل سريع البكاء إلى إرهابي يقتل العزّل في القرى ويغتصب النساء.

لو التقيته أو وقعت ضحية كمين له هل كان سيعتبرني كافرة ويقتلني؟ يتهمني بالموالاة لطاغوت لا أعرفه؟ كل الجزائريين يعرفون التهم الكبرى. موالاة الطاغوت والاقتناع بمن لا يحكّم شرع الله والتقاعس عن إسقاط النظام الكافر. تطلق بسلاسة حتى على بدوٍ رحل، لا يعرفون الانتخاب ولم يجربوا يوما مشاهدة التلفزيون لكنّهم كانوا الأوائل ضحايا التقتيل الهمجي هم والأطفال والنساء والعجائز والبهائم.

هل سيمدّ يده بعنف يطلب نهديّ اللذين أدفآه لسنوات حين كانا أقلّ من حلمتين؟ هل يمدّ نحوي عضوه، وقد صار خشنا بعد أن كان بحجم دودة؟ إذ سحبته مرات من سرواله، وجعلته يتبوّل فوق التراب وردمت بولته بدل سكبها في سروال ملّت خالّتي زينة من غسله؟

تخيّلته يرميني من شرفة مثلما حدث في مجازر كثيرة. تخيّلته يقتل والده عمّي قدّور الّذي يقبّله الأطفال صباحا، ويمنحهم الحلوى وقد كنت من بينهم، يمنحني بدل قطعة عاديّة نوعا أغلى، يختار لي فوسطة بخمسة

دنانير بدل لبان بدينار. في عزّ الخيبة، بحثت عن فوسطة عمّي قدور، وعن مذياع يشبه مذياعه الّذي مرّر أغاني الشّاب حسني فلم أجدهما. لازلت مدينة لجزء من ذاكرتي، يحمل رؤى بيضاء وآمنة، أحتمي بها كلما لسعني الواقع، أقيم لي جلسات للتذكّر، وأبتسم وأبحث عن أوقات مرّت عليّ لم أكن فيها قد خبرت وجع الحياة.

مقتل أسامة جعلني أواجه تأمّلات قاسيّة عن تحوّلات الإنسان. كان يخاف القطط، فأهدّده بقطّ أسود يحرس القمامة كّلما رفض أن يصمت إثر عثرة أو شغب مع صبية الحي. نُشِرت صورته على موجز الثامنة. ملامح غابت عنّي عشر سنوات، لكنّني عرفتها رغم التّمزّق. كان يتوسّط ستة إرهابيين أبادهم الجيش، واعتبرت الصحافة العمليّة نوعيّة، فمن بينهم أمير جماعة فرت نحو جهة أخرى من الجبال. الموت كان سريعا في اصطياده فلم يخلق للجبل ذلك الطفّل، أربعة أشهر من التحاقه به انتهت بعودته مثقوبا برصاص pks الّذي أعرف أثره وقد قرأت عشرات المجلّات الشّارحة لأنواع الأسلحة والعيارات الناريّة.

كلّ شيء أبيض وماء فاتر يتماوج على حواف حوض رخاميّ. أحاول الاستيقاظ. أمدّ يدي نحو يوسف فلا أجده. أراه ذاهبا للبحث عن عبد القدّوس المسجون منذ ثلاث سنوات بالرمايل[18]، يعود خائبا كلما رآه لا يحدّث أحدا. أفكّر في زيارة رفيق طيبي. أتردّد في طلب رؤيته من يوسف. بالغت في ذكره مذ زرناه. أيّ جريمة كنت سأقترفها لو قاضيته من أجل رواية قررت دعم طبعتها الثّانية بدار خيال، لو يوافق على إعادة تحريرها سيرفض. هذا ما قاله يوسف. فهولا يؤمن بإعادة كتابة النّصوص ويبحث عن نصّ يكون امتدادا لما تعلّمه من التّجارب السابقة.

البيجو 301 تشبهني. تتعطّل فراملها وتتأخر استجابتها. واقي الصدمات ولوحة الترقيم تحطّما واضطررنا لإصلاحهما أكثر من مرة. شركة بيجو لا تعترف للزبائن بأنّ خلل الفرملة صناعيّ يستوجب سحب السيارات، واستبدال نظامها الّذي لا يقبل التّصليح. تشبهني! كم فرملت متأخرة، اصطداماتي لا

18 سجن يقع بالشرق الجزائري

حدود لها. لذلك وقد فات أوان الفرملة ومضى الزّمن. سأحتفظ بهذه السّيارة، وأسدّد أقساطها بحبّ وأستبدلها حين تتعب بـ 301 أخرى لأبقى معاقبة بالارتطام بالجدران وبالآخرين.

كنت أخشى ترك يوسف وحيدا يتحمّل ارتطامه بي بمدخل الكليّة حين لمحته ينظر إليّ مندهشا. لم أكن مثيرة لدرجة تجعل عينيه تترجمان مشاعرَ هلاميّة. كذّبته كثيرا وعليّ تصديقه إلى الأبد. سأرتطم به ما حييت، وألتصق بريحه حيثما وجدت. أدين له بالحياة، ودفعات الجمال الّتي لن أسددها ولو قضيت عمري أدفع.

استيقظت بعد ساعات متعبة. لم يستطع المخدّر اختراق اللاوعي المندفع بشرائطه، عارضا ما نسيته من طفولة وذكريات.

جلبوا ريماس محمرّة وجائعة. ودخل يوسف خلف الممرّضة متلهّفا لرؤيتنا، أنا ورضيعة حملت ملامحه. أنف صغير وجبهة متّسعة، ووجنتان سمينتان، وبشرة بيضاء أخذتها عنّي. تغرورق الأعين، وتتضاءل الأحداق أمام

رضيعة ننظر إليها، نرى مراحل من اللّهفة والخيبة ومشاعرَ يجمعها التّناقض.

غادرت المستشفى بعد يومين. واستعدت عافيتي تدريجيّا. وحدتي وقطيعة العائلة أجبرت يوسف على الدّخول في عطلة والبقاء معي. أنجزَ مهامي. طبّاخا ماهرا اكتشفته! غسل ملابسنا ودلّك قدميّ بمراهم سحبني بهدوء نحو الحمام ومسح جسدي بمناشف معطّرة وزيوت. دخلت رواقا من المشاعر ما عهدته. كنت أتصوّر الحبّ والشغف مرتبطين بلحظات القوّة والوقوف باعتزاز، لكن أن نجد لهفة أكبر في عز التعب فتلك مشاعر تحتاج لصبر من أجل اكتشافها وحياة مشتركة لا ننتبه لها حينما ننغمس في حب يعوزه القرب. كم ظنّ العشاق أنّ علاقاتهم وصلت حدودها القصوى قبل أن يعرفوا معنى السّقف الواحد، والسنتمترات القليلة على سرير، وسماع الكناري صباحا والطرب لزقزقة يبعثها باستمرار لأنّثى غائبة دون يأس.

ريماس اسم ابنتنا. بحثت عنه في المعاجم، فاتّفقت على أنّه امتداد لفعل رمس؛ أي كتم وأخفى. اختيار يوسف لم

يستند على المعنى، بقدر ما انبهر بالإيقاع وظلّ يردّده لأسابيع ختمناها باتّفاق على أن يسمّي البنت، وأسمّي الذّكر مستقبلا. وقد استشار أمه فتركت اختيارها للذّكر وتجنّب يوسف الإلحاح مخافة أن تطلب تسميتها على جدّته الرّاحلة "العلجة"، فلا يروق اسم قديم طفلة ستجد الأسماء حديثة، ورنانة كصوت بكائها الّذي لا يتوقّف، ويلمّح إلى متاعب قادمة تلطّفها الأمومة، وتعلق يوسف بي وبها مذ رآها تقبض أنامله.

ريماس: ستكبرين بسرعة وأراك ناضجة، وأقول في المساءات الضّجرة عن الزّمن إنّه مرّ سريعا حين أتقاعد وأجلس القرفصاء قرب شرفة مطلّة على البحر في بيت أفكر الآن في شرائه بالتّقسيط. أكون قد سدّدته، ولن تتاح لي متابعتك عن كثب، فلكلّ مرحلة قدراتها النّفسيّة والصّحيّة.

سأوصيك بحبّ الحياة والتّمتّع بهوائها ونقائها والحرص على محيط مزيّن بالخالين من العقد، وبالطّيبين الّذين يحبون الهوامش والتّفاصيل الصّغيرة الصّانعة لأفراح لا ننتبه لها دائما. لقد وجدت في أوراق نقديّة

نسيتها بين صفحات الكتب فرحة، ووجدتها في عجوز مررت عليها، فأبلغتني سلام صديقة أنقذتها ذات يوم من محنة ماليّة جعلتها تحفظ وجودي وملامحي، ولقد رأيت في كلّ شيء أعدت ترميمه أو تنظيفه انبعاثا للحياة وبداية جديدة وكلّ فناجين القهوة الّتي دعيت إليها كانت أياما إضافيّة لعمري، وزغاريد سمعتها في حفلات التّخرّج، وابتسامات منحتني قدرة على التأمّل. فجهود طويلة وأتعاب تنسى فور إطلاق زغرودة نجاح عابرة. فحين تأكّدت من أن الأفراح نادرة، والتّعابير عنها لا تدوم إلا دقائق وتنتهي، رحت أشقّ مسارات نحو أفراح أخرى لا خرائطَ لها، فصرت أسعد بما يغفل عنه النّاس وتعمّقت في متابعة لوحات الفنّ التّشكيليّ، فانخرطت بموقع artmajeur، وأدمنت مشاهدة اللوحات الفنيّة لجزائريين يحتلون مساحات واسعة، ولأجانب يعرضون لوحاتهم للبيع، بأسعار لا تناسب قدرتنا، فآخر اهتماماتنا الفنّ. وكم بدوت مثيرة للشّفقة حين اقتطعت مبالغ من مدخّراتي لشراء لوحات متوسّطة السّعر لفنانين جزائريين تشجيعا وحبّا.

شعرت بتعجّبهم حين كنت أصرّ على الاقتناء فأكتشف أنّ فنانين أنجزوا لوحات مهمّة دون تحديد أسعارها، فيتعاملون معي بتحفّظ وخجل عكس الّذين راسلتهم في أوروبا وأمريكا من فنّانيها الّذين يردّون بسرعة وثقة على الإيميلات، ويحدّدون أسعار لوحاتهم ويفرّقون بين الزّبون العاديّ والممتاز.

لوحات سمير بن سالم اكتشفتها من خلال غلاف رواية "الموت في زمن هشّ" سحرتني وجسّدت حيرتي. ملامح أراني فيها، وأشكال تمثّل ما عبرني من حوادث. امرأة بلا رأس، ونسوة متحلقات حول الفراغ. امرأة متحفّظة تغطّي نهديها، وعلى بطنها علامة شطب. هلال محاصر بإطار يمنع حركته، وأشكال تشمل ثقافات قديمة وحديثة، وجسد مركّب من قطع ليست من نفس الحجم. صرت زائرة دائمة للمعارض، فتعرفت على العديد من الفنانين التّشكيليين، وزيّنت البيت بلوحات من مختلف المدارس. ألهمتني حساسيّة مبدعي الألوان وهيئاتهم الغريبة. يرتدون سراويلَ عريضةً، وشعورهم طويلة

ويُلاحظ عليهم هدوء موارب قد يتحوّل إلى عاصفة. غرابة الفنان في جزائر لا تحتفل بالفنّ لا توصف.

نغرق في يوميات تستهلك الجميع. تآكلنا يا ريماس وحجبنا الأفق، وبقينا نلمح بعضنا في الوحل. لن يختلف الوضع خلال مئة سنة قادمة. أنا يائسة وإلاّ كنت غيرت هذا الكلام لتكبّري، وتجدين تفاؤلا، وتقولين لقد تنبأت أمي منذ سنوات بعيدة بهذا المصير. لكن هذا غير ممكن. فكل شيء يدلّ على خرائبَ تنتظرنا، وأملي ألاّ نشهدها وألّا نتعذّب نحن الرّاحلين الأقرب إلى الموت بما سنترك من انهيارات لا نعرف مآلاتها. فرغبتي في رؤية أبنائك يهرولون نحوي يا ريماس أهمّ من ما سيحدث. فلست أنا من صنع مصائرَ بلد يتهاوى لأتحمّل نتائجَ تفوق طاقتي. لقد صنعت الحبّ مع والدك يوسف، وأخلصت للتّدريس حين كنت أستاذة، ولشركة بيجو حين وظّفتني في عزّ المسغبة. ولا يهمّني ما سيحدث. فلو فعل الجميع ما فعلت لكنّا بخير وبلا خوف.

ريماس أنظر إليك وأحلم بطفل آخر يؤنّسك ويقضي معك أوقاتا نكون فيها أنا ووالدك منشغلان بتجديد

الحبّ، وبناء مستقبل مريح، جلّ ما أخشاه أن أصير مبتذلة وعاديّة في عيون يوسف لذلك أخترقه كل يوم بسلوك جديد بقبلة، بهدية، بابتسامة، بوردة، بعصفور بلون بأفرشة ملوّنة، بعطر.

حبّ جارف يا ابنتي لا يتكرّر بسهولة، سنوات مرّت ولم نكن لنستمرّ بالتوهّج الأوّل لولا بطء البداية، ما يأتي سريعا يذهب بسرعة، نضجنا على مهل، كنت أتصوّر كل علاقة عاطفيّة وما تجلبه من أقوال وأفعال مجرّد ورديات مراهقة. وسخرت من الحبّ؛ لأن وجوهه الّتي رأيتها كانت تستحّق السّخريّة؛ والآن قد عرفت الحبّ الّذي تنقشه الأيام على القلب بهدوئها، فالمجد للقلوب الصّابرة على سرعات مجانيّة.

السّماء رصاصيّة، والجوّ بارد، سأقرأ عليك شعرا من أعراس الغبار. كتاب رفيق طيبي الّذي أرسله ليوسف. أوصاني أن أطلع عليه. فقد يزورنا رفيق ولابدّ أن نناقشه.

كاَلسَماء يَحِلُ البَدرُ مُطارِدا غُيُومًا ظمأى
يَتوَسَطُهَا وَيُغَنِي لِعُشَاقٍ خَلفَ نوَافِذِ النِسيَانْ
يَعبَثُون بالشَعرِ أسفَلَ الجَسَد
يُرَتِبُونَ الغَدَ لما يَقتَضِيه الضَجَر
يُعَدِلُونَ حَرَارَة يُوليُوبِنتفِ الإبِط
يَنَامُونَ حزانَى عَلى نَقنَقَة الضَفَادِع
تَطرُدُ حُلُمَ المدِينَة وَتنتَخِبُ البَوَادِي
مَأوى أبدِيا!

***

يَرتَعِشُ الليلُ بِسَنَاء
عُريٌ يُخِيفُ البَعُوضَ والضَوء
يُباعِدُ القَمَر، النُجُوم
يُطِلُ عَلَى ضوئِها كَطِفلٍ
غُمَيضَة للمَكَان، لِصَبي رَأى خَالَة
تَدهَنُ بالمرَاهِم الحَوَافَ المنسِيَة
لِرَجُلٍ لَن يَأتِي!
فَذُهِلَ كالبرقِ وَحكَى السِرَّ لأطفَال القُرَى
وَشَاعَ الانتِظَار.

ليتك تصبحين شاعرة يا ريماس. أبتسم لأنّك أصغر من فهم الكلام، وجنوني بك يدفعني إلى قراءة الشّعر عليك! لم أفهم إلاّ القليل. كتابة غامضة بالّنسبة لامرأة لم تتعوّد متابعة الشّعر، واكتفت بما قرأته في المدرسة. في مخيّلتي الشّعر يقوله شيخ كالمتنبي أو رجل بنظارات طبية كمفدي زكرياء. عالم الشعراء غريب.

على يد يوسف تعلمت الانتباه إلى التّفاصيل. ومن خلال ما كتبه اكتشفت أشياء فيّ لم أكن أعرفها. في قصائدَ وجدته يكتب عن إصبع واحد لم أجمله بالطّلاء مثل الآخرين. جعل منه قصيدة، ورأى فيها نظاما سياسيّا ينسى الصّغار كالأصابع، واتّهمني بالتّقصير في توزيع الضّوء على يد بإمكانها أن تصنع قدرا. أقهقه حين أقرأ قصائده، وأصدم أحيانا. لا أفهم كيف تقوده مخيلته نحو جنون قد لا يفهمه أحد.

أحلم بك شاعرة لتكتبي غدا عن جلستي المحاذية لبحر لا يتوقّف عن الهدير. وتتحدّثي عن الألسنة المتدافعة داخل مدفأة الغاز الّتي أحتفظ بها منذ ثلاثين

سنة. وتكتبين عن شعري الأبيض وتساقطه، وعن قصّتنا أنا ووالدك لعلّها تلهم العشّاق. لي حلم آخر هو أن أنجب لك شقيقا يكون رسّاما يجسّد الأوجاع، ويختصر مسافات القراءة في وقفات أمام أشكال وألوان تعبّر عمّا عجز البسطاء أمثالي عن قوله. فرغم شهادة الدّكتوراه لم تحفر فينا المدرسة أنا وجيلي، وربما جيلك أيضا حبّ الفنّ، ولا طرائقَ القراءة، أو التبصّر في اللّوحات، ولا معرفة النوتات الموسيقيّة، ومفاتيح الآلات.

أنقذني أبوك من حياة باردة لا فنّ فيها، وأدخلني عن طريق الشّعر مسالكَ لا مخرج منها، حيث أدمنت الفنّ وأعدّته خيارا نهائيّا.

سنة مضت، وأنا أخاطبك مساءً كلّما كنّا وحيدتين. فيوسف يعمل ولا يدخل باكرا. وقد سعيت لتحويله نحو شركة بيجو، لكنّه رفض خشية الاضطرار للقيادة بي أو العمل تحت أوامري، فمهما بلغ سموّه الإنسانيّ لا تأفل العقد الصغيرة، فهو يفضّل إيصال أبسط عامل على أن يقلني بغير حبّ وتحت أمر، وقد تفهمّته، وسأواصل السّعي لردّ اعتباره قضائيّا، واستكمال دراسة تركها منذ

سنوات، وسيصبح محاميّا، ولن يبقى سائقا خاصة أنني على بعد خطوة من منصب مديرة جهويّة للشّركة فجهودي الّتي بذلتها حظيت بالتّقدير.

يا ريماس كم أحبّك! نامي واستيقظي بخطوات أقلّ تعثّرا وبحبّ يزداد حرارة، كلّما ناديت عليّ ماما وعلى يوسف بابا وافعلي ما أوصيك به الآن وكوني حرة وشاعرة، وابحثي عن الجمال في صغائر الأشياء.

**– وها قد سمعت الحكاية يا التايه، انشرها وحدث بها الآخرين حيثما رحلت وسلّم على الّذين يكافحون في كل بقاع القهر والخوف، اعتبرها وصيّة، لقد وصيّتك. عدني أن تفعل.**

**– وعد، وعد..**

# التّـــايه

الرّابعة صباحا، والسّعيد الاسكافيّ مستمرّ في النّظر إليّ دون تعب، وهذا نادر أو مستحيل بالنّسبة لرجل ينام على العاشرة، ويضاجع زوجته على الثّامنة، ويتعشّى على الخامسة طيلة ثلاثين سنة، حسب ما قاله لي عن يومياته المتشابهة. سوسن أكثر الشّباب دقّة في السّماع، وقد استوقفتني مرّات لضبط تفاصيل صغيرة لم تستوعبها في حكايا بدت لها مدهشة. وقد رأيتها أكثر حزنا على مديحة من الآخرين؛ لأنّ قريبة لها رحلت متأثرة بسرطان الثّدي قبل أشهر، حسبما حكت في عجالة. وقد احتضنها صالح، ووضع رأسها على صدره في وضعيّة حميمية جعلت سهام تتوسد فخذيّ محمد. وقد ألغى الليل والسّرد كلّ الحواجز، وفتح الأفق على الإنسان، بما يشتهيه، بحقيقته بصدقه وكذبه، ولم أخفي شيئا ممّا علمت، ففي حالات أكون غائما وصافيّا كسماء شتويّة تتعطّل رقابة أحتكم إليها عادّة. فالنبيذ الأبيض يلغي المصافي، والغرابيل، وكلّ حاجز يقدر على توقيف الكلمات ولو برهة، حين تتدافع من ذاكرة جريحة وسعيدة بما تحمل من حزن واعتزاز بمسار صادقت فيه كل

الفئات، وارتبطت بالعابرين على وقت طال بي لو قارنته بظروف وأوضاع تقتضي نهاية تأجّلت. أو بالأحرى أجّلتها بشغف الاستماع، وانتظار الطارئ والرّاسخ من حكايات حفظت بعضها لطاقة أصحابها وقدرتهم على البقاء معي مطوّلا، رغم التّشرّد الظّاهر عليّ. ولأنّهم عرفوا كيف يحكون بتدفّق باهر، يجعل الأحداث تترسّخ في ذاكرة أنهكها الخمر. استحضرت صبيرة ومديحة وهيام، وأبقيت على أخريات لسهرة أخرى لا أدري بمن ستجمعني، وسأكمل حكاية أوقفتها لشرب الماء، فمسك السّعيد الاسكافيّ خيطها واستحضر زوليخة بنت المداني الّتي يعرفها، ورفضت سرد حكايتها أمامه! سأستكمل النّشوات النّسويّة، وأعود إلى أصدقائي الرّجال الّذين سأبقى مدينا لهم بتعريفي بالشّعراء والأدباء، ورجال الفنّ، وإدخالي لمدن لم تشملها خريطتي كقسنطينة وبعض مدن الشمال الّتي خالفت بوصلتي لتعلّقي أكثر بالصّحراء، والمدن الدّاخليّة حيث العزلة تمنح للشّرب مذاقا أعمق من الأماكن الصّاخبة بالحركة. لن أنسى كيف بدأت الحكاية مع فؤاد، وسأسردها مثلما حدثت.

وبعد ليلتنا هذه أنا مضطر للمغادرة نحوه. فلم تعد لي طاقة على تحمّل مدينة تأبى التّغيّر. وسأذهب صوب أصدقائي الّذين اتّفقت معهم على لقاء قريب. سأخبرهم برغبتي في البقاء معهم، وسيفرحون مثلما فرحوا سابقا ورحبّوا بي، مقدّرين سيرة ضالّ تبدو لهم عظيمة ولآخرين حقيرة.

الرّابعة والنّصف ساعة قاسيّة. تذكّرني بأيام عملي في المخبزة، حيث أتجهزّ للذّهاب إليها محمّلا بملابس العمل والاستعداد لحرارة الفرن الحارقة. أعيد النّظر في وجوه سهام وصالح ومحمّد وسوسن والسعيد الاسكافيّ أجدها مشدودة إليّ. لم أترك عادة النّظر إلى المساحة الصّغيرة بين قدميَّ حين ينتظر مني الآخرون النّظر إلى وجوههم، ملامحي لا تسرّ، يحرجني أنف طويل، وندوب قديمة، وآثار جراح، وحبوب تزيدها التّجاعيد بروزا نظرات متقطعة، إذ يتماهى البصر مع حمرة الفراش الممزوجة بالأسود والأخضر.

لم أتصوّر أنّني كنت قادرا على إبهارهم ليلحّوا في طلب المزيد. تعوّدت على الحكي للسّعيد الاسكافي المعجّب بكل ما يقال لتكاسله عن النّقاش أو الانتظار أو الانبهار، فيكتفي بمأمأة لا تدلّ على فهم أو استيعاب. وقد ورّطني مع الضّيوف في قصّة زوليخة بنت المداني الّتي تجنّبتها خوفا من إفشاء سرّها كونه يعرفها. ولأنّها تذكّرني بماضٍ اعتبرته منتهيّا وليس فيه ما يثير الذاكرة.

زوليخة مشعوذة علّمتني الدّجل في مرحلة الحاجة الملحة إلى المال، وأغراني تكاثر الغباء بالانخراط في تعليم لم يكلفني إلّا الولاء لها، ومضاجعتها نادرا على مضض. فقد كانت تكبرني بعشرين سنة، مترهّلة ومستهلكة وساخنة كعاهرة عشرينيّة. وتشتهي أن تضاجع مراهقين يزورونها بحثا عن وصال نساء مستعصيات، فترسم لهم مربّعات ومثلّثات وأشكالا هندسيّة لا معنى لها، وتطلب أسماء عائليّة، وتكسر البيض، وتلفّ طلاسمَ مكتوبة على ورق خشن في قماش أخضر، وتعِد من يعجبها بوصول عاجل إلى معشوقة لا توليه اهتماما، وتختمها بسرّ تبوح به لأول مرة ! فتهمس للزّبون بما هو مهمّ ولا يجب أن يشي

به لأحد، وإلّا صار بلا فائدة، ومفاده أنّ فرجها ترعاه جنيّة من جزر كيرغولين[19] تمنح قدرة رهيبة على الجذب والإدهاش لكلّ شخص يدسّ قضيبه مرتخيّا أو منتصبا فيه. وقد تحدّثت عن الارتخاء لمعرفتها اليقينيّة أنّ ليس فيها أيّ ملمح للإغراء والتّرغيب. فالعطالة الجنسيّة الّتي تعيشها منذ ثلاثين سنة على الأقل، أي منذ تعرفت عليها سبب قويّ لامتهانها السّحر، حيث تعتقد أن الناكحين العابرين ألزمتهم حاجتهم إليها مضاجعتها، وأنّ كلّ نكاح لا طلب فيه وإلحاح يعدّ ترقيعا لا يعوّل عليه. لكنّني اكتشفت ذلك متأخرا، وعرفت أن في خلفيتها سخريّة مهولة تجاه زائريها الّذين يمنحونها المال ويروّجون لها سرّا خاصّة من وفرت لهم الصّدف فرصا حميميّة بعد زيارتها لثقتهم بأنفسهم باتّكائهم على كلامها فخاضوا مغامرات ناجحة بلا دور لزوليخة سوى توهّم فحولة بإمكانهم منحها لأنفسهم بلا حاجة لوساطات الشّعوذة. وقد تعلّمت من زوليخة معنى الثقافة الّتي لا تأتي للمتعلّمين بقدر ما تتكوّن عند الّذين خبروا فوائد

[19] جزر معزولة في جنوب المحيط الهندي.

التّرحال، ومخالطة الناس، والحديث إليهم. فكنت أجد عندها ما يبهر من معارف غير متاحة، إذ تنسب كل قول لطبيب تيارتي[20] أو حكيم وهراني، أو تاجر سطايفي، أو خبير عنابي. ومن كثرة الخبراء الّذين استمَعت إليهم وتعتزّ باستحضار أسمائهم، فصرت لا أميّز بينهم وبين تخصّصاتهم، فأكتفي بالصّمت كلّما ذكرت واحدا منهم.

حكت لي في معرض الحديث عن شهرتها الواسعة عن دور الصحافة في التّرويج لها، وكيف أن صحفيي قناة معتمدة وطنيّا حاولا تصويرها سرّا لنشر ما تمّ تسجيله بنيّة فضحها فازدادت شهرة. فقد ساهمت القناة في جلب النّاس، خاصّة الشّاتمين في المقاهي والمساجد الّذين تصلها أخبارهم، فلزوليخة أعين في كل مكان ترصد ما يجري، وما يقال، وحتى الإعلاميّون الّذين بادروا بفضحها زاروها تائبين طالبين أن تكتب لهم حروزا ترفع مكانتهم عند رئيس التّحرير الّذي يقترب من تصفيّة

[20] نسبة إلى مدينة تيارت الجزائرية وعلى نفس المنوال وهراني أي من وهران وسطايفي من سطيف وعنابي من عنابة وكلها أسماء ولايات جزائرية.

عمّال القناة، وإسقاط أسماء متورّطة في كشف التّلاعب بالمال العامّ، وبالسّكرتيرات، فكتبت لهم زوليخة ما سبق أن ذكرته من طلاسمَ، وطلبت منهم دهن صدورهم بماء الزّهر صباحا ومساءً، وشرب مياه قرأت عليها تعاويذَ ووضع الكتاب المغلّف بقماش أخضر في حمّالات الصّدر وفي جيوب المعاطف، وطالما أدهشني اطّلاعها. فرغم سنّها طوّرت لهجتها، ولم تتركها للشّيخوخة والترهّل. تتحدّث كشابّة ملمّة بخبايا السّياسة، والكرّة، والثّقافة والمقاهي، وأعراس مدينة الكآبة، والدواوير المجاورة.

زبائن زوليخة بنت المداني يغرون بالمقاسمة.لا يتوقف توافدهم من الرابعة صباحا، وقد خصصت لهم قاعة مفروشة بحنابلَ قديمةٍ وزرابي في محلّ على واجهته دعاية تفيد التّداوي بالأعشاب، والطّب النّبويّ. ولم يفكّر سكان المدينة في الاحتجاج على نشاط يتعارض مع مبادئ دينية ودنيويّة. فكلّ فرد له قدر من الكآبة يجعله زبونا محتملا، قد يجد نفسه خائفا من أيّ عطب مع زوليخة الّتي يعرفها الجميع، ويحيّيها الكبار والصّغار حينما تمرّ في الشّوارع ووحدها تقطع حي المعدومين بلا

خوف وتجالس الشّيخ الحسناوي ساعات فيتحدّثان عن عمر هارب وسنين قضتها ترقع إصاباته بملح عينيه، ولم يكن يغضب منها. ولم ترقع شيئا سوى بقراءة سور من القرآن، المعوذتين والإخلاص، ولا يسمع المعيون إلا أحد.. أحد.. صمد.. حسد دون تدقيق، وقد كنت المطّلع الوحيد على تركها للصّلاة منذ سنتها العاشرة وعدم حفظها لأيّ سورة طويلة. فقد اختارت أن تكون مشعوذة دون اتّكاء على كتاب الله. وهذا ما جعلني احترمها ولا ألعنها كبقيّة المشعوذين الّذين يقتاتون من رقية عوانس وكسالى، تقول زوليخة إنّ إصابتهم تستدعي تدخّلا من أخصائي النّفس. فحالات الذهان والانهيارات العصبيّة وغيرهما من الأمراض النّفسيّة النّاتجة عن القمع والكبت لا تعالج بالرقيّة، وتؤكّد على أقوالها باستحضار كتب أطبّاء وعلماء نفسانيين أجدني عاجزا عن فهمها.

التّايه الّذي ظنّه النّاس مجنونا لفترة طويلة، كان سليما وزعيما لطائفة من العشاق اختارت أن تحيد به عن نهج

زوليخة في الدّجل والشّعوذة. وقد ساعدتهم بالكتابة قبل أن أتوب وأختار طريق المشي والسّكْر والاستماع.

بداية التفّ بي شباب تتراوح أعمارهم بين العشرين والثلاثين، وقد نجحت في كتابة رسائل حارقة لحبيباتهم اللواتي وقعن كالذّباب في عشقهم، وصرت أتقاضى مبالغَ وأستقبل زوارا من مدن قريبة قبل حظر مدينة الكآبة الدّخول فصار الوصول إليّ خطرا. ثم انتقلت إلى كتابة قصائدَ جاءت واضحة وشفّافة المعاني، فلم تعجب الشّباب فأغرقتها في الغموض والحيرة فاندهشوا، ومن جنونهم علّقوها على الصّدور، فثار السّكان، واتّهموني بتجاوز الحدّ المعقول من الاعتداء على حرمة الدّين بكتابة الطلاسمَ جهارا نهارا. ولم تساعدني زوليخة بنت المداني بمهابتها عند النّاس، ظنّا أنّني انخرطت في الشّعوذة وبدأت أسرق شبابا كانت تستغّل حاجتهم وفراغهم في مضاجعتها.

تجاوزت المحن، وسافرت شرقا وغربا تاركا مدينة الكآبة لأهلها. ولولا الحنين ما عدت. حنين يشعله تذكّر أبي وأمي، وشقيقي الوحيد الّذي مات مكلوبا، وفقدت برحيله آخر أنيس قبل السّرد.

العالم الممزوج بالواقع والخيال والجنون علّمني المقدرة على البقاء حيّا، حين تنفد الأسباب، ويصبح البقاء قيدَ التّنفس بلا جدوى. فالاستماع والإيمان بأنّني مجرّد قصّة ككل القصص المنتهيّة من آدم إلى التّايه يطمئنني، ويمنح المعنى لما أقضيه من أيام باردة، وازدادت برودة منذ رحلت زوليخة بنت المداني الّتي حكمت عليها جماعة متطرّفة بالموت، وقامت بقطع رأسها، ووضع علامة شطب على باب بيتها وكتابة: "لا يفلح السّاحر حيث أتى" بطلاء أحمر.

تخيّلت لحظاتها الأخيرة وتوجّعت، فقد فكَرت في الأيام الأخيرة في التّوبة والعودة إلى الله بتغيير نمط عملها، وممارسة سحر المحبّة، وترك تفريق الأزواج والخلّان الّذي تعوّدته منذ عقود، وتعهّدت بأن تحجّ وتأتي بنفس جديد يمكّنها من بعث مشروعها الّذي

سيلقى دعم الجمعيات والمنظّمات الباحثة عن تحصيل السّلام في العالم، وغير الموجودة في الجزائر.

رأت في هذا النّمط من السّحر والشّعوذة بوابة كبرى للخروج من مدينة الكآبة، والالتحاق بأوروبا أو أمريكيا. فهذه القارات وحدها تؤمن بضرورة المحبّة وتحرص عليها فيأتيها النّاس من كلّ الفئات باحثين عن الحبّ والسّعادة. بدل مواصلة العمل مع القادمين من مدن بائسة لمركز التّعاسة في الجزائر أي مدينة الكآبة. والّذين أرهقوها بالشحّ والخوف. فحين تطلب أن يأتوها بشَعر أو أقمشة المستهدفين فإنّهم يتقاعسون، ويريدون سحرا هوائيّا، وإذا طلبت التوجّه نحو المقابر، وفتح القبور، ودسّ نسخ من الحروز ودفنها، حيث لا تصلها يد فتفقد مفعولها، فإنّهم يتهرّبون، ويعرضون مضاعفة المال، لتقوم بدلا عنهم بفتح أحدث قبور رجال المدينة المعروفين لترى أعضاءهم قبل تعفّنها، والّتي تعذّر الوصول إليها حيّة، فتفلح في دسّ الحرز بين الخصيتين والشرج، وتمرّر يدها مستمتعة دون قرف أو خوف. فبيتها قبر مفتوح على أنواع الدّود والقذرات، ولم يسبق

أن فتحت قبر امرأة، فطالما عافت الفروج والنّهود، ولم تفكّر في اقتحامها.

رحلت وتركت فراغا لم يسهل عليّ تقبّله، فوحدها اعتبرتني صديقا، وضاجعتني ودعتني إلى طعامها وبيتها عشرات المرات. مدين لها بفكرة التّوبة والهجرة، وتغيير نمط الحياة، لكنّني متعثّر ولا أجد سبلا لأقتنع بواجب الرّحيل وبناء حياة أخرى. فالبيرة والنّبيذ، وكلّ أنواع الكحول أفقدوني القدرة على أيّ فعل إيجابي عدا الاستماع والحكي، وإذا تنقلت إلى مدن تشبه الّتي خرجت منها فلا جدوى من ذلك والرّحيل نحو أوروبا مكلّف، فليس لديّ طاقة للعمل في الجسور، والبنايات الشّاهقة والأنفاق، ولا أملك فحولة تقنع فرنسيّة، أو بريطانيّة، أو مكسيكيّة بالحفاظ عليّ كعشيق فلست أفضل من كلب وديع يمكن أن تربيه وتسهر عليه فتضاجعه أو تجعله يلعقها بلذّة أكبر من لذّة ضئيلة مع سكير قادم من الجزائر لم يضمّه أحد منذ عشرين سنة على الأقل.

بلاد تعيسة، شوارعها تخلو من القبلات والأحضان وحتى الأيادي متنافرة والمسافات بين الرجال والنّساء

شاسعة لا تسمح باستنشاق عطر، ولا تبيّن لمعان أحمر الشفاه ولا ذوقه، وكلّما اقتربت من شخص توجّس واستعدّ ظنّا أنك ستعطّل سيره بطلب أو رغبة فائضة يجسّدها تحرّش مبتذل. فهم لا يعرفون كيف يقولون صباح الخير بطراوة تفتح المجال للحوار. لقد سرت في مدن كثيرة، وهران، عين تموشنت، باتنة، ورقلة تمنراست، وكم صعبت عليّ بدايات الحديث مع ناس وجدتهم حيرى ومتوهّمين أنّهم عظماء وليسوا بحاجة للغرباء. في ملامحهم رهبة وخوف، فكلّ غريب جاسوس محتمل، أو متحرّش، أو مجرم، لست أدري من أين يأتي هذا الهوس والجبن في التّعامل؟ والّذي يخفّ في الولايات السّاحليّة، ويحدّ حين تتجاوز حاجة السّؤال عن الأماكن إلى أسئلة تتعلّق بالحياة.

الدّنيا فانيّة ولا حال يدوم!

– صباح الخير يا التّايه. ستبقى في هذا البيت ! ارحل رجاءً. أنت روائيّ، وتعرف النّساء، وتسكر وتسافر وتخاطر، ولديك من الشّخوص ما يسمح بكتابة رواية مطوّلة. مكانك ليس هنا، فلا أحد يعرف جدواك

وسيشربك هذا الانتفاء القاسي، وتنتهي دون أن تترك آثارا.

أستاذ جامعي نادر في مدينة الكآبة، يخاطبني بما يحث على الرّحيل. لا يمكن تصديقه. فكلّ من يرغب في رحيلي نيته خبيثة. لم يستطع أهل الكآبة أن يتسامحوا معي أبدا ويسقطوا عني التهم، ولم يتعلموا من تلفزيون وحواسيب لا أجيد استخدامها أي فكرة جيدة توصلهم إلى اعتبار السكر حاجة خاصة وترك الصلاة شأن إلهي واتساع قبري وضيقه يعنيني وحدي. لا أدري من أين يأتون بهذه القدرة على تغريب الناس بينهم وجعلهم يشعرون بضيق التنفس وصعوبة الحركة في مساحات كبيرة. يستطيع أصغرهم تشمم من يختلف عنه ولوكان متخفيا بالمئات من الرؤوس وحتى المسجد صار لا يأويهم وتقسّموا فرقا تمني نفسها ببناء مساجدها. وخلقوا صفات ينعتون بها بعضهم. لكنهم يحافظون على الانسجام العام لأنهم لم يخرجوا عن طاعات وطقوس يتفقون على ضرورتها ويختلفون في تطبيقها وتاركها يمسي عدوا يحارب بكل ما أتيح من وسائل. ولا يتعلق

الموضوع بالتدين والعبادة فقط ولوكان كذلك لصار النفاق حلا لكل من يريد أن يحظى بحياة هادئة وسطهم. لكن حياتهم مقولبة وجاهزة كتجربة لا تحتمل النقاش. يُطلب الانصهار داخلها وإلاّ اعتبر المتمرد زنديقا وخارجا عن التقاليد والعادات.

– صباحك سعيد. لم أتعلم فنون الرواية. أنا مستمع وسارد حين أجد أذنا بسيطة تريد سماع أخبار الفرح والبؤس والمدن والوهاد. لا أطمح لأكون روائيا ولا رغبة لي في الإنخراط في حياة الروائيين. والهجرة النهائية الّتي لا تبشر بما يغذي الحكاية ويزيدها تدفقا لا تغريني. فقط لو تساعدني بجلب صناديق سمك أبيعه وأقتات منه بدل هذا الحيف. وإذا أردت أن أقص عليك ما يمكنك كتابته فلا مشكلة.

– سأستمع إليك يا التايه وأسجل قصصك وحكاياك صوتيا وأنقلها لروائي يكتبها بشكل جيد. لقد قرأت رواية "نساء" لشارلز بوكوفسكي. سكير يكتب عن النساء والضجر والنبيذ، أنت بوكوفسكي الّذي لم يكتب ولم تسمح له ظروف مدينتنا الكئيبة بتعلم فنون السرد.

– لا أعرف من ذكرت. لدي استعداد لأقص عليك ما لم تسمع ولا أعدك إلاّ بالمتعة شرط أن تعدني بالتخلي عن أي شرط يتعلق بالتقدير والاحترام والحفاظ على المسافات وألاّ تقاطعني ضحكا أو شجبا وأن تحاول قدر المستطاع أن تغرق. الحكاية لا تعترف بوصايا أصحاب ربطات العنق والأئمة والمشايخ الّذين يسبّقون الإحترام على الحقيقة، الحقيقة إما تظهر عارية أولا تظهر !

– آه يا التايه. سأستمع بحب لكل ما ستحكيه وأعدك بما طلبت ولن أتأخر في تلبية النداء حيثما كان لك وقت وقدرة. أنا رهينك حتى تكتمل الحكاية شرط أن تختار لي باقة تفيد أجيالا قادمة ستقرأ تجاربك. فهدفي أن أحفظ ذاكرتك بالكتابة والمسجّلة الّتي سأحملها معي لابدّ أن تفرغ بقلم روائي يجعلك خالدا.

– اتفقنا يا فؤاد وسنبدأ جلساتنا غدا ببيتي. أحضر لي كرما زجاجة نبيذ وبعض الجبن. سأختار لك نساء تسمع بصوتهن ما يمنحك خبرة، ولن أسمعك حكايا قديمة لنساء في سني. سأحكي قصص جيلك وستجد المشتهى.

- بشغف أسمعك يا التايه. لعلك تغير رأيي في الزواج وقد بلغت الخامسة والثلاثين وحملت من أعطاب الحب مالا أطيق. أريد قصصا عن الوفاء والجمال والأمل والجنون، وقد سمعت أنك زرت مؤخرا تلمسان وباتنة وأصبت بالتهاب الكبد الفيروسي بعد شهرين من الهيام. أحكِ لي سير النبلاء والبلهاء والتعساء والأتقياء.

# فــــؤاد

عملي بكلية الآداب واللغات بجامعة قسنطينة لم يتح لي فرصا لسماع قصص تشرح الصدور. فأنا مولع بالإصغاء مذ كنت طفلا وأعتبر هذه الميزة امتدادا لعلاقتي بجدتي الحاجة فاطمة الّتي لا تتوقف عن الحكي. تحفظ السيرة الهلالية وحكايا الغول والسلاطين وقصائد سيدي لخضر بن خلوف[21] وحِكم الشّيخ المجذوب[22] وحكايا الثورة وبطولات المجاهدين الّذين ساعدتهم بخبز الكسرة والمطلوع وغيرها من أكلات أهمها الشخشوخة، أعز طبق حربي يليق بالجبال وبردها وجوع ليلها الّذي يجعل الأمعاء تعوي.

فقدت جدتي شتاء 1999. نمت بقربها ووعدتني بحكاية حين يطلع النهار وترتاح من حمّى مفاجئة. لم

---

[21] هو بلقاسم بن عبد الله بن خلوف المغراوي (1479 – 1585 م) شاعر جزائري عرف بقصائده الشعبية واشتهرت قصيدته التي خلدت معركة مزغران التي وقعت بمدينة مستغانم بين الجيش العثماني والإسباني وانتهت بانتصار المسلمين يوم 26 أوت 1558.

[22] بو محمد عبد الرحمان بن عياد بن يعقوب بن سلامة بن خشان (1506 – 1568 م ) شاعر مغربي صوفي اشتهر بالرباعيات.

تستيقظ ولم تحدث صوتا يدل على احتضارها. رحلت نائمة كملاك ولم تكتمل حكايتها. ومن يومها أطارد قصص كبار السن حيث وجدت وصرت أرى في كل شائب ملامح جدتي ورؤاها الّتي انطفأت فجأة وتركت بداخلي مشاعرَ لا تخمد تجاه كل مسن أعرف أن له خبرات.

صرت صديق التايه. وبيني وبينه عشرون عاما لا نشعر بها حين ننسجم في مداعبات وحكايا تشمل مراحل مهمة من تاريخ مدينة الكآبة الّتي غادرتها جدتي منذ زمن وساقتنا كآبة أبي وحبه للمتشائمين للعودة إليها وشراء منزل في أهم أحيائها. وقد شملت التعاسة بيتنا. فشقيقتي روميلة خاصمت كل الرجال الّذين رغبوا في الارتباط بها وبقيت وحيدة منقوصة من الحب الّذي لم تستطع الوصول إليه وقد نكّدت أمي حياتها بالشكوى الدائمة من كل شيء ولومها على من نفّرتهم من عرسان. أما شقيقي أحمد فصدمته شاحنة، وأدخلته غيبوبة طويلة تعافى منها بعد أشهر وصار يدخل مراحل من الهذيان تجعله يشي بأسرارنا ويحكي خرافات وأساطير قرأها لكل

من يجالسه بمقهى المدينة. ومن سوء حظه أن مدينة الكآبة تحتفي بمن يوشك على الجنون. يزيده أهلها خبلا بسماعه وتشجيعه على مضاعفة الهلوسة. الجنون أرجوحتهم الّتي تدفعها الأيادي نحو سماء لا تبقي للأقدام موطأ، حيث يتوهم من يصاب بحالة ذهنية أن الجميع يشبهه فيفقد القدرة على التفريق بين الواقع وهلوساته، حين يجاريه كل من يلتقيه ويعرض عليه أفكاره. فيضيفون لها ما يضاعف أزمة المريض ويعقدها.

أجلس إلى التايه. يمازحني بروحه الساخرة ويسرد عليّ من سيرته ما لم أسمع. لم يثق بي قبلا وشكّك في نيتي. ليس سهلا أن يحكي التايه ويغرق في لجج تفتح ذاكرته وتفككها، فتبكيه أحيانا وتجعله يتهاوى من الضحك أحيانا أخرى، تقلبات مزاجه كثيرة والنبيذ يصنع له أكثر من شخصية تتشابه في الحنان وحب الحياة ويختلف استرسالها في الكلام أوقطعه. وقد كان للجو تأثيره الكبير. فالتايه رجل الشتاء والليل، وكلما زادت حدة البرد في ليالي ديسمبر وجانفي، تضاعفت شهيته للسهر والشرب بفراشه الأرضي الّذي يعتبره من اللوازم.

سألني مرارا عن تأخر زواجي، وتهرّبت من الإجابة لأنني لا أملكها أو أخاف مواجهتها وقد داهمني فضول جارف لمعرفة سر عزوبيته بعد أن اعتبرته قدوتي في حياة تشبه حياة تشارلز بوكوفسكي وهنري ميلر الّذي ندم متأخرا على الزواج  فقال "الحب لا يذكر في العقد الزواج يؤدي إلى البؤس والأطفال، الحرية ثمينة جدا". أعجبت بموقف ميلر لأنني لم أتعثر بالحب، فكثير من الّذين عرفتهم على موقفه انقلبوا كليا حينما دخلوا علاقات غرامية عززت حياة بعضهم وحولت آخرين إلى ضحايا لعبوديات لا تبرر إلاّ بالأنانية وحب التملك اللذين يتحولان إلى كابوس يؤدي إلى الجنون.

لقد تأخر عملي لسنوات في بلد عاطل وشهادة الدكتوراه في الأدب المقارن لم تكفِ في جامعات تحتفي بالمحسوبية والجهوية والولاء الحزبي. يتهمني الزملاء بالمبالغة كلما تحدثت عن وضع قلق لبلد لا ندري أين ينتهي به المسار. وجامعة تزداد ضحالة عبر السنوات. ويقيني أن الحقيقة مالحة لا يستطعمها وعي متأزم يجعلني أشد عليها وأصدم بها الرافضين لمصارحة

أنفسهم. وأعتبر المبالغة استشرافا لمآلات تؤرق من يعرف التاريخ. فكل يوم ننحدر قليلا نحو المجهول، ولم تعد الحياة مريحة، ونحن نواجه تقلص ضمانات الحرية والأمان في غد محاصر ورهين إرادات ظرفية لا تملك رؤى حقيقية لمستقبل صارت ملامحه من ضباب، وضع مرقع لا يتحمل الحاضر ولا يعوَّل عليه في غد قريب قد نعيشه عراة من وهم العظمة والتاريخ، حينها لن نرتدي سوى فقرنا ولن نستمتع بعدها بقدراتنا الخارقة على التماهي مع زيف الكسل وانتظار المعجزات.

اصطحبت التايه إلى حمام معدني، واستفدت من انتشائه وتعطره. إذ يحكي ما يغري بالتأخر عن العودة والسير بسرعة ستين كيلومترا في الساعة، تصبح لحيته بيضاء ناصعة وشعره رطبا وعيناه تزدادان حمرة بسبب البخار. أفكر في عرضه على طبيب يرمم أو يقتلع المتبقي من أسنانه، ليعوضها بطاقم اصطناعي يمكّنه من مضغ الطعام وتفادي قروح المعدة، كما سأعرض عليه العيش معي في السكن الوظيفي بقسنطينة وترك مدينة الكآبة إلى الأبد فلن يرافقني أحد إلى البيت وإن اصطحبت ذكرا أو

أنثى، فالتايه سيرحب به ويحكي دون تحرج وسيستفيد من المحيط العام للجامعة والكتب والنظافة والحمام اليومي واتساع المدينة وجمال نسائها وطعامها وقد يكتب. فهو خريج مدرسة قرآنية حيث حفظ عشرة أحزاب وعمره لا يتجاوز العشرين، قبل التحول نحو حياة يعرفها سكان مدينة الكآبة أكثر مني، حيث عاشروه ستين سنة من تاريخ ولادته عام 1955.

أقرأ روايات غربية وعربية وكتبا في الفكر والتاريخ والسياسة. أعجبت بأدونيس ورينيه شار وبودلير وحنان الشّيخ وأمين الزاوي ومحمد أركون وواسيني الأعرج ووليام فوكنر وجيمس جويس وعبد الله بوخالفة[23] وعثمان لوصيف وابن خلدون وهنري ميلر وأناييس وكاتب ياسين. قائمة مطولة لكن المفكر الأعظم بالنسبة

---

[23] شاعر جزائري (1964 – 02 أكتوبر 1988) مات منتحرا تحت السكة الحديدية وقد عرف برؤيته الفلسفية وحداثته في الكتابة، صدرت عنه العديد من المقالات والنصوص من أهمها "فجيعة التروبادور" للباحث الجزائري أحمد دلباني / منشورات البيت 2010.

لي هو ميشال فوكو. قرأت له : تاريخ الجنسانية وتاريخ الجنون، الكلمات والأشياء وكتبا كثيرة.

ميشال فوكو مثليّ الجنس. يضاجع الرجال ويشتهيهم ويسافر من أجلهم. وقد تطابقت أقواله ومواقفه مع حياتي المتضائلة أمام من يعرف حقيقتي ويعرف استمتاعي بالتصاغر قرب من أشتهي من الرائعين. فأنا مثليّ الجنس وأحب الرجال. مذ كنت طفلا، لا أتملق بنات الحي ولا أنظر إلى أعضائهن الحميمية، حين تنكشف ونحن نلعب الوثبات ولا أمسك فتاة من فخذيها، حين أقبض عليها في الغميضة وأستغل هذه اللعبة للقبض على أعضاء الذكور.

كبرت بميول خفيّة، فلم أجد من يساعدني على تفسيرها. يستاء الرفاق حين أقترب منهم وأحتك بأجسادهم وأقبّلهم بحفاوة صباحا ومساءً. لم يكن طبيعيا في نظرهم سلوكي الّذي يتجاوز قدراتي على المراقبة. أنفلت آليا حين أواجه جميلا بعضلات مفتولة وجسد متناسق. لقد دفعني أحدهم على وجهي، فكُسِر أنفي ولم أتعافَ إلاّ بعد شهرين لأنني قبّلته على فمه في

لحظة فرح ووالدي هددني بالطرد من البيت إن رآني على هذه السلوكات مرة أخرى فقد أبلغه أهل الحي الّذي كنا نقيم فيه بمدينة الكآبة بما اقترفته من حبٍّ في حق الجيران والرفاق.

صار لي خلان أقضي معهم الليالي وكنت حبيبا لمسعود القادم من وادي سوف، والّذي غمرني بلطفه وحبه ورغبته العارمة قبل أن يموت في حادث سير، فصرت أبكي كلما سقط الظلام وشعرت بالوحدة والفراغ مسعود استحق ثقة كبيرة وضعتها فيه، لم يكن رجلا عاديا وقد عرفت من خلاله ثقافة الصحراء وأصول الحياة فيها ولم يختصر علاقتنا في بعدها الحميمي، كنا نعيش اليوميات على بساطتها بمدينة الكآبة، كنت أقيم معه ببيتهم حين يغادر أهله نحو وادي سوف، فنفتح كتب التراث ونشرب الشاي بنكهة الصحراء ونسهر إلى غاية الصبح وكلما تذكرته وقد مرّ زمن طويل على رحيله حزنت وترحمت عليه بحرارة.

**أنا فؤاد بن داود.**

هكذا ولدتني أمي وعلمتني حب الجميع مثلما دربتني جدتي على الاستماع، وحبّ القصص والسيَر، فاكتشفت من خلال ماحكت لي طيلة عشر سنوات من المرافقة أن البطل إما يصل حيث يريد وإما يموت غدرا أو حبّا أو شرفا. وبطولتي اليوم رهينة استبدال نظرات العداء بنظرات الحب.

أحببت النساء وصادقتهن، ولم تفكر فيّ أحداهن كزوج لمعرفتها المسبقة بمصيرها المعنوي حين يعيّرها الآخرون بالزواج من رجل يشتهي الرجال، خاصة بعدما شاعت حكايتي مع طالب فوجئت به يتحسس مثليتي ويرغب فيها فحدث بيننا اشتهاء افتضح سره لاحقا حينما أذاعه بعد رفضي التوسط له عند الزملاء لغيروا نتائجه في الامتحان النهائي بعد رسوبه.

هل من الضرورة أن تضيق عليّ المساحات وأهاجر بحثا عن قبول عند شعوب أخرى. ستتقبلني لأنني مثقف وقارئ ودكتور وأتقن ثلاث لغات ويحتاج إليّ العالم بلا تدخل في حميميات صغيرة أعيشها في حلكة

الليل ولا تحدث شيئا في مسار العمل والاجتهاد، إذ يشهد كل من عمل معي على إخلاصي وكفاءتي.

لا أدري لما يلومونني!

أنا لا أعبث بغد أي شخص، وأساعد الفقراء وأدرّس الطلبة دون تمييز وأصلي الجمعة وبعض الأيام ولا أهتم بخصوصيات الناس وأحب الجميع وقد اخترت التايه ليقيم معي واثقا من رحابة قلبه واتساع أفقه، وقد وافق على طلبي بعدما وعدته بتوفير حاجته من النبيذ والشاي والفراش الأرضي الّذي يتقرفص عليه كلما انتشى وتجهز للحديث، وسيعرف بمثليتي ولن يعارضها. فهو يدرك أنها جزء من حياة أناس ولدت معهم ومع كل مثليي العالم، وقد أطّلع من خلال علاقاته وأسفاره على سير الغلمان وما كتب فيهم من شعر وكلام يطيّب قربهم ويمني العشاق بهم. وقد كنت قادرا على كتابة خواطر ونصوص أجمّل بها نفسي لجمهور المثقفين وأحيي أدبا كان يحتفي بنا في زمن الدولة العباسية وغيره من أزمنة القوة حيث لم يكن المثلي يهدد ديانة أو شعبا وكان حلقة ضعيفة في مجتمع واسع ومتعدد الألوان والثقافات. وقد

طلبت مما يزيد عن عشرين طالبا خلال ثلاث سنوات أن يجعلوا مذكرات الماستر تعالج شعر أبي نواس وأبي عبيدة النحوي والخبزارزي المتودّد للنساء والرجال، جاعلا الرّغبة حالة إنسانية لا كراهية فيها.

لم أطلب تشريع قوانين تحميني. فاحترامي لعرف الناس واتفاقهم على رفضي قبلته وأنا مطلع على التشريعات وشعار الإسلام دين الدولة الّذي لا يطبق إلاّ في صغائر الأمور والشّعبويات، لكنني أرفض التحييد واعتباري فئة مختلفة لا تنتمي إلى الناس. لست مهتما بأي قانون أو عرف من حق من صاغوه وهم يتبوؤون مركز قوة أن يطبقوا رؤيتهم للحياة بما فيها من غياب للمنطق والعقل. أزمتي مع استسهال الكراهية وعدم التوقف لحظة واحدة للتساؤل عن سر هذه الحالات وخلفياتها فلا طاقة لي على تعذيب إنسان بذنب لم يقترفه. وأنبهر بمن لديهم هذه القدرة ! إذا حاسبنا المثليين على ما لم يصنعوه، فهل سيمتد التساؤل إلى الآخرين من المعاقين والبشعين وأصحاب الأمراض الخطيرة. فنقول لهم لماذا

أنتم بيننا وذنبكم أنكم لم تحسنوا أشكالكم وصفاتكم وأنتم في بطون أمهاتكم!

لا أزعم الدفاع عن نفسي. فأنا قادر على الرحيل والتمتع بحريتي خارج البلد. أنا رهين حيرة أبدية ترتبط ببؤس عقل محاط بالأشواك لا يطرح الأسئلة ومتيقن حد امتناعه عن مراجعة أي فكرة أو موقف. السؤال يعني الجنون في بلدي! لقد رأيت من عاش مئة سنة دون أن يطرح استفهامات حول وضعه وحول نظرته إلى الآخر ورحل مكبلا بالأحكام الاجتماعية والنظرات السطحية لكل شيء. وقد طرحت هذه الإشكالات بملتقيات وطنية ودولية بعناوين مختلفة خاصة ما ارتبط منها بالنقد الثقافي. ففوجئت بأساتذة جامعيين يتبنون أطروحات العامة، ويمجدون خطابات كلاسيكية أفلت منذ أربعين سنة على الأقل.

قضيت مع التايه سنة ونصفا في البيت قبل أن يقرر المغادرة والعودة إلى مدينة الكآبة بحنين وقد ترك لي مخطوطات وتسجيلات أردت إفراغها في كتاب. وسأجد لها روائيا أو كاتبا ليقوم بهذه المهمة الخطيرة. فما يحكيه

يصعب نشره حتى إن كذبت وقلت إنه محض خيال وإن الرواية في النهاية هي عالم من ضباب لا نحاسب عليه.

فترة عرفت فيها التايه بعمق، كبرت المحبة حين تشاركنا الغرفة والطعام ومتعة الحكي وقد همس لي قلبي برغبته في استكمال حميميّة علاقتنا بجمع السريرين وجعلهما سريرا واحدا وتجريب الجنس مع التايه الّذي يزعم أن قضيبه أكبر من كتاب متوسط الحجم، لكنني خشيت أن أخسر مودته حين يفاجئ برغبتي وقد لامست عضوه ليلة شرب ليسانكسيا ونام عميقا فوجدته مرتخيا لا يتجاوز حجم تمرة وتعطلت رغبتي أكثر حين تذكرت أنني لا أملك واقيا فأجلت سريره إلى أوقات أخرى.

ترك لي فراغا موحشا. تعودت عليه يقص ويشرب ويطبخ. وقد زاد وزنه وصار جميلا وكنا نمشي على الجسور ونأكل حمص دوبل زيت[24] ونتفادى قدر المستطاع المرور على مركز مكافحة السرطان الّذي يعذب الذاكرة

---

[24] طبق شعبي تشتهر به مدينة قسنطينة (400 كلم شرق- الجزائرالعاصمة)

باستحضار حبيبة التايه الّتي لم يذكرها يوما في جولاته ولم يسرد تفاصيلها. ولولا أنني جالسته ثملا بنبيذ فرنسي لم يعتده ما حكى عن أوجاعها وتسرّبات الموت إلى جسدها بهدوء وسحبها منه لذلك لا يعرف كثير ممن التقوا به سر ضجره من الحياة وبوهيميته المسرفة، يعتبرها حكاية النهاية الّتي سيبوح بها مرة واحدة لمن يخلّدها ثم لا يعود إليها أبدا فهي جمرة تتحملها الروح ولا يطيقها اللسان إذا ما صعدت إليه وجب رميها دفعة واحدة، الموت جرح مفتوح على الحنين والتذكر وقد ينهي كل رغبة في الاستمرار، لذلك التايه يخشى توقف حياته الثانية الّتي يعيشها ساردا فجذوة الحكاية هي عذابه الداخلي الّذي لا يريد له نهاية إذا وقعت ستكون خاتمة مساره. وهو يقطع الستين صار أكثر تذكرا لمن عرفهم وسمع عنهم من الّذين عاشوا مئة عام وتجاوزها وقد عرفت من خلال استحضاره للمسنين وتمجيد حياتهم البسيطة أنه يريد عمرا إضافيا ليعيش ما يشتهيه وما لم يشبع منه.

حين سحبت ما ترك التايه من مخطوطات كتبها بقلم أسود، وما سجلناه في جلساتنا الليلية وجدت تراكما

كبيرا. التايه لا يكتب نصوصا بل ملاحظات وبدايات لعمل ما تتوقف بسرعة، وأحيانا ينجز قصصا مطولة بتركيب ضعيف يدل على شرود ذهنه وقد لاحظت أنه يغير الموضوع وينساه بين رشفة وأخرى.

سعدت ببقائه معي ومتابعته لعلاج التهاب الكبد الفيروسي بإجراء التحاليل البيولوجية المتعلقة بالمضادات وغيرها. ولو بقي في مدينة الكآبة لواجه خطر تفاقم الوضع والبقاء دون رعاية، وسيعود يوما ما حاملا مخزونا جديدا، فلا أتوقع بقاءه هناك والحنين مبرر غير مقنع فلا شك سينطلق نحو وجهات جديدة لا يعرف أحد سرها.

اكتمل اطلاعي على المخطوطات وسماعي التسجيلات. وقد حان وقت الروائي فلا قدرة لي على كتابتها وجعلها في متناول جمهور قد تعجبه وقد يحرقها وهذا غير مهم فالكتابة تجربة تخيب وتنجح. ثم ما دخلي لأدافع عن كاتب قبل كتابته؟ قد أكون خائفا ممن لا يفهمني. إذا تحتم الأمر سأدفع للروائي ثمن الكتابة وأنشر المخطوط باسم التايه أو تحت اسمه الحقيقي عمر حداد. فلا أحد سيهتمّ من الوسط الأكاديمي. فقد

تعوّدوا على الاهتمام بشؤون أخرى والصحافة اختارت كرة القدم والفلكلور، والسّفاسف. سأتّصل بحميد باسي صديقي القديم الّذي جمعني به الفايسبوك منذ سنوات بعد أن قرأت مقالاته منشورة على جريدة صوت الأحرار. وبحثت عنه فوجدت حسابه على الفايسبوك لتنطلق صداقتنا الهادئة وتستمرّ رغم اللقاءات النّادرة.

# حميد باسي

انقطعت المياه عن الطابق الثاني بفندق كونتينونتال فتعطّل الحمّام وكبر احتجاج الرعايا الصينيين المتعاقدين معه لستة أشهر. ولم يجدوا حلا فبقية فنادق وهران مكتظة وباهظة لا تناسب استراتيجيّة الشّركة المستقدمة لعمال بسطاء اختارت لهم كونتينونتال لتناسبه مع الأسعار المقترحة من الشركة الأم مراعية تكلفة المشروع، وموقعه القريب من ورشات العمل.

كنت نائما على البلاط بين سريرين غير قادر على الاستيقاظ بعد سهرة مطولة على الكورنيش مع شعراء ومسرحيين دخنوا الحشيش بقربي فرحلت معهم في عوالم من الهلوسة والأدب والجنون. ولم يكن من عادتي تحمل روائح التبغ والحشيش لولا متعة الحكي عن مشاريع النهضة في بداية القرن وإحباطات الدّولة الوطنيّة وشعب سنكون ضحاياه لو فكر في التغيير فنحن من يطلق علينا النخبة مستهدفون ممنّ يجزمون بأنّنا استهلكنا قدرات الدولة في الفلكلور والسخرية والبندير، دون انتباه لما يقوم به المفكّرون الجادّون من أعمال وندوات وما ننشر من كتب مهمة وغير مهمة لا يجيد هؤلاء قراءتها.

فالأقرب إليهم هو البندير ومشتقاته وهذا ما روجت له التّلفزة الوطنيّة خلال عقود.

تحمّلت نعاسا غير طبيعيّ، وثقل الدماغ في التّجاوب مع رغبة النهوض والاستحمام، والتعطّر وترك الأرضية الرطبة. وشرب قهوة خفيفة يقدّمها الفندق لا تلبي حاجة القلب للانتشاء، فأضطر إلى قهوة ثانية في الكافيتيريا المجاورة مع قراءة "الخبر" أو"الوطن"، وإذا كان المزاج بائسا فلابد من بؤس إضافي بقراءة جرائد عشر دنانير الّتي تجمع ما جادت به المحاكم من تعاسات وفقر وحالات اجتماعية ميئوس منها.

أرتدي سترة النوم، وأفتح الباب لأرى ما يحدث في الرّواق. كلام بصينية تعلّمت مفردات منها خلال إقامة عمال صينيين قرب بيتنا العائليّ ببرج بوعريريج خلال إنجاز الطريق السّيار. مترجم يصرخ على مدير الفندق الّذي قبضوا عليه يتجوّل في الطّابق الأول بعد غيابه لأسبوع متفاديّا اللّقاء بهم، وقد حفّظ عون الاستقبال كلمات رقيقة ليواجه الزبائن المحتجين، فيكرّر على

مسامعهم: لا تقلقي سيدتي، عذرا سيدي، سيتمّ إصلاح الخلل خلال يوم أو يومين.

الرّواق على اتساعه ضاق. بدأت الصّينيّات في الانسحاب لتبقى واحدة في الأربعين أو أكثر، وأخرى تقارب الثّلاثين. سألت المترجم بفضول عن عدم تغييره غرفهم إلى الطّابق الأوّل الّذي تتوفّر به المياه، فلم يرد. وقد علمت لاحقا أنّ الطابق الأوّل قد حجزه رجل أعمال مدة سنة لفائدة اللاجئين السّوريين، وكنت الجزائريّ الوحيد المقيم الدّائم على نفقة شركة لتهيئة السّواحل الملوّثة، وإعادة فتحها أمام المصطافين.

نزلت إلى المطعم. تأخّر الوقت، والعمل سيتأجل إلى المساء، فلن أصل إلى "عيون التّرك" قبل العاشرة. أتغيّب وأبقى داخل الغرفة ريثما يقلّ الازدحام فأتّجه نحو العيون لأتغذّى السّمك المشوي بدل أطباق فندق لا يحترم خصوصية مدينة ساحليّة تتطلّب وجبات بحريّة بدل شرائح الدّجاج والبطاطا وغيرهما من الأطباق المعروفة والمطبوخة وطنيّا.

فوجئت بطرقات من الصّينيتين اللتين رأيتهما في الرّواق. حضر معهما المترجم، واعتذر مسبقا قائلا إنّ ياني وآموي يريدان استخدام حمام غرفتي مدّة ربع ساعة على الأكثر، فوضعهما صار حرجا وخشيا الخروج إلى الحمامات العامة.

وافقت وجهزّت لأخرج لكنّهما طلبا بقائي، واعتبرا خروجي دليل انزعاج سيحتّم تراجعهما. استلقيت وبعدها فتحت الثلاجة، سكبت كأسا من عصير البرتقال، ورفعت صوت التّلفاز لتجنّب سماع ضحكاتهما داخل حوض اختارا الاستحمام فيه معا اختصارا للوقت أو خوفا من الاختلاء بي حين تستحمّان بالتناوب. أمّا المترجم فقد وجد فرصة للفرار نحو المقهى بعد أن أرهقه عمل الصّينيين الّذي لا يشبه العمل مع الجزائريين إطلاقا. خرجت "آموي" تطل عليّ بمهابة. ابتسمت ففهمت من إشارتها أنّها تدعوني للاقتراب. نهضت بخطى متباطئة. دلّتني على صنبور المغسلة المعطّل، وقد نسيت أن أطلب منهما عدم فتحه. أغلقته بالضّغط عليه وأشرت إلى استخدام صنبور الحوض فقط. وانتبهت لهما

غارقتين في الفقاعات وعلى حواف الحوض وسائل لاقتلاع الشّعر، ومرطّبات، وغسول صيني ومراهم جعلت الحمام شذيّا. حملقت بإعجاب، فلقيت ابتسامَتَيْ محبّة من "آني" و"آموي". وقفت آني وسط الحوض فظهرت عانتها كثيفة. اتّسعت عيناي وتذكرت أفلاما شاهدت فيها الصينيات بشعر منكوش وأعضاء صغيرة. دعتني إلى الاستحمام معهما ففتحت حزام سترتي واقتربت، ثم طلبتني آموي فاخترت توسّطهما. وقلت yees بصوت ساخن. شَعر آموي أقل كثافة وجسدها أكثر امتلاءً مقارنة بآني. ارتميت في حوض لا يتسّع لثلاثة. تبلّلت. غمرتاني بمراهم صينيّة منعشة، أفرزت فقاعات ملونة وكثيفة، فصرت كقطعة قماش ناصع. سحبتاني خارجا واستلقينا على السّرير. تضاجعنا حتى منتصف النّهار، وهرولت لأعمل، دون فرق بيني وبين أي كلب قضى شهرا يلهث بين الشّوارع والقمامات.

وجدت في حلاوة الصينيّات رغبة في الانتقال إلى الصّين وممارسة الحياة على صرامتها ودقّتها، واختيار من تشبه آموي وآني أو إحداهما للزّواج والعيش هناك

ّونسيان فكرة التّنوير والإنارة وكل ما له علاقة له بالنور في بلد مضاء منذ سنوات بعيدة، وترك بلدي لمن وجدوا فيه راحة ونعما، واختاروا أن يكونوا منتخبين وسياسيين ورجال دين، ولاعبي كرة قدم، أمّا الّذين اختاروا الكتابة فمصيرهم القمامات والملاجئ.

تكرّرت لقاءاتي مع الصّينيات اللّواتي استثقلت أسماءهن، فلم أعد أجتهد في تكرارها مكتفيّا بالقول "الشّينويات" حين أحدث عنهن أصدقائي. اخترت التواصل معهن بانجليزيّة مائعة.

شككت في كون هذه النماذجَ النّسويّة مبعوثة للعمل وفكّرت في تخطيط الدّولة بعناية، وباتفاق الحكومتين الصّينيّة والجزائريّة لاستقدامهن، وليستا مجرّد عاملتين في شركات البناء إنما أرسلت آني وآموي وغيرهما من الصّينيات لجلب انتباه رجال الجزائر الكسالى، وتحريكهم ودفعهم للعمل، فقد يئست الحكومة من اشتغال الجزائريين، ولم تجد غير اتفاقيّة جلب الحسناوات النشطات للارتباط بالرّجال وحثّهم على الجدّ، فتبدأ المغامرة من السّرير وصولا إلى الورشة. وقد أثبتن

قدراتهن الرّهيبة في ممارسة الجنس بحفاوة يعبّر عنها صراخ عجيب لم أسمع عنه يوما، وقد تابعت أخبار النّساء عبر التّاريخ بما جاء في كتب التراث والدّراسات التّاريخيّة، فاكتشفت أن العربيّات أهمّ مكانة. فقد كن مطلوبات من ملوك وسلاطين مختلف الأقطار وأسعارهن في سوق النخاسة أغلى بكثير من بقيّة النّسوة بهدف المتعة والخدمة لجمالهن وحرارتهن، لكن حقوقهن تأجل تحصيلها بقرون عكس البابليين الّذين سبقوا الحضارات الأخرى برفع مكانة المرأة، وإقرار حقها في الملكية الخاصة، والعمل بحرية وتكافؤ شهادتها بشهادة الرّجل، ورئاسة البيت في غياب زوجها متقدمين عن الحضارات اللّاحقة الّتي أقرّت الجواري والعبودية. أمّا الأمازيغيّات، فقد تبوّأن مكانة مهمة في أقوامهن، حيث برزت من بينهن قائدات كديهيا الّتي قال فيها ابن عذاري: "جميع من بإفريقيا منها خائفون وجميع الأمازيغ لها مطيعون". كانت لهن المشورة، وقد لخص جمالهن هشام بن عبد الملك الأموي في رسالة غير متفق على صحتها بعثها إلى القائم على إفريقيا، واصفا النساء

المطلوب إرسالهن إلى الشام، وواثقا من حيازتهن لصفات عبّر عنها بدقة بقوله: **عندك من الجواري البربريّات الماليّات للأعين الآخذات للقلوب ما هو معوز لنا بالشّام. فتلطّف في الانتقاء، وتوخَّ أنيق الجمال، وعظم الأكفال، وسعة الصدور، ولين الأجساد، ورقّة الأنامل وسبوطة العصب، وجدالة الأسوق، وجثول الفروع ونجالة الأعين وسهولة الخدود، وصغر الأفواه وحسن الثغور، وشطاط الأجسام، واعتدال القوام، ورخام الكلام**. وقد اكتشفت الصّينيّات متأخرا، ووجدت الحاجة مُلِحة لتصحيح الرّؤى التّاريخيّة وإعادة إدراجهن باعتبارهن ساحرات بحركية استثنائيّة، لم يتعرّف إليها العرب القدماء، وإلاّ كانوا ربطوا علاقات، وجلبوا الصينيّات، وكنّا اختلطنا معهن، وتمتّعنا ببعض خصالهن خاصة أن المعطيات تغيّرت بعد تمدّد الكسل، وانتشار الآفات من العادة السّريّة إلى منشورات الفايسبوك الفارغة وصولا إلى سراويل ممزّقة بدّدت جهود الرّجال في اكتشاف تفاصيل المرأة المشتهاة، وصارت رؤية فخذيها وساقيها حالة عادية بعدما كانت رؤية الفمّ والأنف مهمّة

صعبة في أوقات مضت. ولم يكن ذلك بدعوى حريّة اللّباس، وحقّ الحياة كالمرأة الغربيّة المنخرطة في اتفاقيات حقوق الإنسان، والمساواة والعدل، وإنما كان بإيعاز من الرّجال الكسالى الضجرين من إتّباع النّساء في المروج والبوادي، والأحياء الضيقة، أو طلبهن للزّواج بما فيه من مصاريف وتكاليف، لذلك صارت الرّؤية أسهل واكتفوا بالنّظرات، وبالصّور العاريّة، والأفلام في مرحلة من الكسل عطلت اجتهادات الحب والعشق وبددت نتائجهما وصارت القناعة بالغث من الكلام وضعا مألوفا وربما ممتازا لمن لا يريد الخروج من بيته وتكوين ثروة صغيرة تتيح له الزواج من امرأة تقيه العجز الجنسي والهزال الّذين تسببهما العادة السرية.

ينفضّ الوقت في وهران سريعا، بين العمل وجلسات قاعة الشاي مساءً مع الشعراء. لا أجد فرصة لتأمل بحر ارتبطت به رغم أني لم أولد قربه. وقد كبرت في بيئة شبه جافة. النوارس تحلق عاليا، فأنتشى برؤيتها منطلقة من الصخور. تلهمني الشواطئ الصخرية. أغرق فيها

وأبحث عن نفس ضيعها التأمل والشعر وحالات هلوسة انتقلت من الأفكار إلى الحواس.

صرت أرى الأشياء تتضخم حولي وأسمع الأصوات مكبّرة وأدخل فيما يشبه الحمى. أضطر إلى مغادرة البيت أو الفندق حين أتواجد في وهران. أمشي ساعة لتتضاءل الأشياء وتعود إلى حجمها. سألت أكثر من طبيب عن حالّتي دون أن أجد إجابة. رفضت إجراء فحوصات على الدماغ. أخاف أن تُبدِد الأشعة المقطعية ما ترسّخ على سطحه من قصائد. أسأل أمي كل مرة فلا تجيب. تعودت عبور الأسئلة الغريبة والبلهاء بـ"أمممم" اختصارا لتفاصيل غير ضرورية. تعلمت منها الصمت وقد قضت ما يقارب ثلاثة عقود في عيادتها تعالج المرضى وترمم أعطابا نفسية تلحق النساء بسبب معيشة مرتبكة تغيب فيها الحرية. أمي تصلح مناضلة في حزب سياسي جاد فهي تقدمية لها رؤى تحثّ على حب الحياة والسفر والمغامرة لولا ضيق الأماكن والإقامة بمناطق لا تعرفها الخرائط لذلك بددت فرصا مهمة لتكون أفضل ككل اللواتي انخرطن في حياة بلا أحلام. توجز أفراحها في

حيازة سكن وحفنة مرضى لا تكفي مداخيل علاجهم لشراء سيارة جيدة وأولاد يكبرون تشاركهم آمالهم وتدفع بهم نحو تحقيقها بكل ما أوتيت من قوة رغبة في تفادي أخطائها. كم من أم تستبق انكسارات أولادها بتوقعات صائبة يمكن الحيلولة دونها ببعض الذكاء؟ لقد رأيت فيها شجاعة وهي تدفع بي نحو أقصى السماء رافعة سقف أحلامي بدعوتي لترك الالتفات إلى الوراء ولو كانت هي فيه. أي هذا الخلف الّذي نمشي ونتوقف وقتيا للنظر إليه قاطعين وعودا بالعودة.

ألتقي بشعراء المساء والليل. لا يجمعني بهم عمل. كلما دعوتهم إلى ما يفيد المدينة وشعبا ننتمي إليه عجلوا بمواصلة الكلام دون التوقف لفعل شيء. لابد أن أعتذر لهم حين أصفهم بالظواهر الكلامية. لا أدري لماذا يوجزون الحياة في الأوراق والأماسي والكلام والبكاء على الواقع والهمز واللمز. ربما شعراء المدن الّتي مررت عليها متشابهون وغيرهم مختلف وربما أنا أهم ظاهرة صوتية دون أن أنتبه لذلك، فلا يقع عليّ إلا من يشبهونني. قاطعت الكُتاب بعدما ضجرت من النميمة

وشح المشاريع وعزز قطيعتي تشارلز بوكوفسكي حين قال: **"كرهتهم جميعا على الفور، فيما جلسوا بلا طائل مدّعين الحذاقة والفوقية." كانوا تفاهة على تفاهة. أسوأ ما يمكن أن يحصل لكاتب هو التعرّف إلى كاتب آخر والأبشع من ذلك هو التعرف إلى عدد من الكتّاب الآخرين. مثل ذباب فوق كومة خراء واحدة.**

حافظت على صداقتي مع فؤاد الّذي لم ألتق به منذ أشهر، وقد تواصلنا مرارا على الفايسبوك لتبادل الرؤى ونصوص يكتبها سرا. ويرسلها إليّ وينتظر رأيي، زاعما أن صديقته شاعرة وناقدة مغربية تريد آراء جزائرية في نصوصها، وقد دعاني لصداقتها فاكتشفت أنها مطلعة على كتبي وتريد تعاونا أكاديميا قد يفضي إلى علاقة حميمية حسب توقعات فؤاد. كما أن نسب النّصوص إليها جاء كمرحلة من كتابته. يصارحني بحيلته لمعرفة رأيي بحياد، فأضحك من كذبة مفلسة فما أرسله إلي لا يكتبه من كانت له موهبة بحجم حبة قمح، فكيف أصدق أنها نصوص ناقدة وأكاديمية بجامعة محمد الخامس في الرباط.

أما وقد ارتويت من آني وآموي بما يكفي وصارتا حبيبتين لي وعرضتا عليّ التحاق صديقة أخرى أصولها من مدينة شنيانغ المعروفة باختلاف نسائها عن نساء المدن الأخرى ومن بينها شانغهاي الّتي ينحدران منها.لم أعد مهتما بالجزائريات أو المغربيات وصار لي طموح اتجاه الآسيويات. وقد تركت الكسل إلى الأبد وصرت أستيقظ على السادسة صباحا وأنام على العاشرة ليلا وأقضي الأسبوع متشوقا للقاء الشنويات.

فؤاد لن يكتب. ومهما حاول الظهور أو التستر، فهو ليس موهوبا ومهتما بالتقعر أمام زملائه الأساتذة بما قرأ من كتب أكاديمية أكثر من الاطلاع على الكتب الإبداعية، لذلك بقي رهين مثلية جعلته يفرض نفسه بكل الوسائل الممكنة، وقد اختار رفع مستواه الأكاديميّ؛ لإيمانه بعدم جدوى الإبداع بجامعة لا تنجب المبدعين إلاّ نادرا حيث تظهر أسماء كطفرات، ثم تغيب بسرعة خاصة الأسماء النّسويّة الّتي تكتب لتتزوج ثم تُنسى.

شعره مثقل بالقوافي أكثر مما تحتمل القصيدة. وطالما تخيلت الخليل بن أحمد الفراهيدي يصفعه بقوة قائلا: لقد تجاوزت وصيتي ومعارفي وحولتها إلى تزمت ومروق يدعو للسخرية. ويزيد الطّين بلّة برفض قصيدة النثر والاستهزاء بكتابها وحين يواجَه بنصوص الكبار كأنسي الحاج وبودلير والماغوط يصمت ويعتبرها حالات خاصة.

قد يكتب بجمال حين يتخلص من الخوف أو يتركه المجتمع وشأنه دون ترهيب، فيكتب عن رجال يشتهيهم ويذوب كقطعة جبن حينما يراهم صيفا يرتدون المايوهات على الشّواطئ خاصة في وهران. فلم أضحك يوما بقدر ما ضحكت حين زارني وأقام معي بالفندق ومد يده ليلا إلى عضوي فطردته، نام في المصلى، وعاد صباحا معتذرا. وقد استحق قبول اعتذاره لاعترافه بالخطأ، وشجاعتة في مواجهتي جعلتني أفكر في تعويضه عن الطرد والإحراج، فأخذته إلى "الأندلسيّات". استلقى على الرّمل ببشرته البيضاء وشعره الأصفر محاولا جلب انتباه رجل أربعيني كثيف الشّعر، يرتدي قبعة

ونظّارات سوداء، ونجح في ذلك، وانتهت الرّحلة بمشروع حميميّ جعله يغيب عني أياما طويلة.

اتصل بي صباحا، وأنا في الطريق إلى العمل، راغبا في زيارتي مطلع الأسبوع القادم. سيضيّع عليّ موعدا مع الشينويات. أجّلت زيارته لأسبوع، على أن نلتقي في برج بوعريريج، ثم أعود إلى وهران ويعود لقسنطينة دون إحراج مع آني وآموي وقد أخبرتهما بغيابي خلال الأسبوع القادم، فقاما بزيارتي منتصف الليل جالبين معهن زجاجة ويسكي وبعض الحلويات. سهرنا ونمنا جميعا في غرفتي ولم يذهب أحد إلى العمل صباحا. كانت أول ليلة كسولة وقد صدمت الفتاتان بالساعة العاشرة تدقّ، وذعرتا فلم يرياها في السّرير أبدا. فحتى في أيام العطل يتأخّرون عن النّهوض بنصف ساعة لا أكثر. قلت بثقة: "ربي ورحمتو[25] كل عطلة فيها خير، العجلة من الشّيطان" وترجمتها عن طريق Google traductionإلى الصّينيّة بعد محاولات بالإنجليزيّة فشلت في نقل المعنى الدّقيق. أصرّتا على

---

[25] من العامية الجزائرية وتستعمل للتأجيل والحث على الصبر والإنتظار وترتبط في سياقات محددة بالكسل.

ضرورة فهم ما قلته وبتحريف صغير، وتفصيح للمقولات وصل معناها دقيقا إلى آني وآموي وتمكنتا من معرفة القصد. من يومها صارتا تتأخّران عن العمل دون مبرّر وقد وجدتا "ربي ورحمتو" قولا مناسبا لمسؤول المؤسسة الّتي يعملان فيها. حيث لا يفهم ما يقولانه وقد أخبرتاني أنّه يخجل حين يقولان له "ربّي ورحمتو" وكلّ عطلة فيها خير اعتقادا أنّها مصطلحات ترتبط بالعادة الشّهريّة ومتاعبها، والسّبب الخفيّ لهذا الخجل أنّ جزائريا تعلّم الصّينية بسرعة، طلب منه المسؤول تفسير هذا الكلام الجزائريّ الخالص، فقال إن آني وآموي تقولان إنّ ألما فظيعا يحدث معهما دوريا على مستوى المهبل يسبّب تأخّرهما، وقد وجد العامل الجزائريّ فرصة سانحة للضّحك وإضحاك عمال المؤسسة بعد استقالة المترجم الخاصّ المعين من الشّركة الأم بسبب الإرهاق وكثرة التنقلات.

أعود ليلا إلى رواية "نساء" لتشارلز بوكوفسكي. لا أدري كيف وصف علاقاته دون انتباه إلى امرأة عربيّة مختلفة؟ طرحت السؤال وانتظرت اللقاء بفؤاد لمناقشته

فقد درّس الأدب العالميّ. بوكوفسكي لم يكن كثير السفر وإلاّ كتب نصّا آخر فيه مفردات تعجّ بالحرارة والضّجر والأحلام ومنها: متى نتزوّج؟ أريد بيتي وحدي، أمّك سيّئة، أحبّك مثل أخي، صديقتي لها خاتم فخم.

شعبويات لا أدري كيف أجرؤ على طرح سؤال غيابها في رواية بوكوفسكي العارف بالنّساء، وقد خصّص لهن روايته الثّالثه women الصّادرة سنة 1972.ماذا لو كتب عن الشّرقيّات؟ كيف ستكون الرّواية؟ تساؤل مريع. فالنّساء اللواتي كتب عنهن يعشن بسلاسة دون مثبطات، ومراسيم ذكورية وضجر يومي سببه عجز زوج عن ممارسة الجنس منذ ثلاثين سنة أو عجوز شمطاء ترفض أن تموت وتضطّر إلى خدمتها، ومسح خرائها كل صباح! يا لهذه الحياة القميئة الّتي نجا بوكوفسكي من الكتابة عنها؛ لأنّه أمريكيّ من أصول ألمانية لا يعرف جنون حياة الشرق وسخريتها.

لو استبدل ليديا ودي دي في روايته بنساء أخريات كإكرام وجيهان، سوف يطالبنه بالمال وهو في وضع مزرٍ وسيحكمن عليه بالزّواج مهما حدث ولو خارج رغبته

وسيضطّر إلى زيارة حماته كل عيدين سنويا، واللّقاء بشقيقاتها، وأبناء عمومتها وأخوالها، ومن تعرفهم في كلّ المناسبات الدّينيّة والوطنيّة. هذا جزء من الجنون، وغير مقبول أن يحدث لكاتب. ثمّ من سمح لي بكل هذه الهلوسات الشعبويّة التّافهة؟ يبدو أنّ زجاجة آني وآموي جعلت منّي كائنا ساخرا وأبلها خاصّة أنّني لم أتعوّد على شرب الويسكي الفاخر، ولم أختبر معهما إلاّ النّبيذ الأحمر الجزائريّ الّذي أدخلني حالة غثيان شعرت معها أن أطراف معدّتي تتدافع من حلقي.

السّخريّة وحدها تليق بهذا الوضع. وددت لو أقهقه في وجه تلفزيون يبث أخبار السّاسة ومباريات كرة القدم وبرامج التضامن مع المعوزين. أريد الضّحك بقوة ثم الارتماء على التّلفاز المعلّق على جدار. أسحبه، أطرحه أرضا، أصعد فوقه، أهشّمه بقدمي وألعن ما يبثّه، لكنّني بحاجة إلى إطلالة ولو سريعة على حال الرّاضين بما يشاهدون من أخبار الوطن؛ لأرضى مثلهم وأمرّ إلى فراشي. أنام مبتسما ومنتظرا ليلة أخرى مع الشّينويات نسكر فيها إلى الصّباح، ثم نقول كل عطلة فيها خير

وننتظر المعجزات. لقد تسببت بسلوكي في فصل آني وآموي من العمل بعدما انفضحتا بسخريتهما من مدير المؤسّسة، وبكثرة الغياب. وستّتم إعادتهما إلى الصين قريبا ولا سبيل لدي للرحيل معهن. فالسفارة الصّينيّة لا تتساهل في منح تأشيرات الخروج للجزائريين. ولو منحت لي تأشيرة، ماذا سأفعل هناك مع سيّدتين بطّالّتين ستعودان إلى أطفالهما وحياتهما وأجد نفسي مجدّدا كأيّ كلب وحيد مشرد. وحتى الكلاب هناك لا تتجوّل في الشّوارع، ولها حظائر خاصّة لا يسمح بدخولها إلاّ بشروط!

في أول انعطاف من الطّريق السّيار للخروج عبر المحول نحو برج بوعريريج أصحو قليلا، وتغيب عني الهلوسات لأتذكر أنني نسيت الكمبيوتر في الفندق، وقد عرضته لخطر السّرقة بما فيه من مخطوطات مهمّة، وكتب. مضيت نحو البيت، واستلقيت بعد حمّام منتظرا وصول فؤاد مساءً. اخترت أن نلتقي في بيت هامشيّ استأجرته منذ سنة ولم أقم فيه لتواجدي بين وهران وأدرار. وصل حاملا معه مسجّلة فيها حكايات "التّايه" الّذي قضى

ستّين عامّا هائما على الأرض، وراغبا في تدوينها. وضعتها جانبا، وغرقنا نراجع ما لم نتحدّث عنه، فاللّقاء الإنسانيّ الّذي تتقابل فيه العيون لا يعوّض مهما طال حديث الفايسبوك.

خلال السّهرة شغّلنا المسجّلة واستمعنا إلى كلام مطوّل عن نساء شرقيّات لا يشبهن من تخيّلت بوكوفسكي يتعرف إليهنّ ويكتب عنهن. شتمت نفسي عشرين مرة لتتعوّد على عدم إطلاق الأحكام الجاهزة لكنّها لا تأبى التوقّف عن هذا الفعل المشين. سألت فؤاد لماذا لم تكتب هذه الرّواية الصّوتيّة؟ التّايه سارد جيّد ويحكي بتقنيّات ومستويات مختلفة، فلا تحتاج جهدا كبيرا لجعل ما منحك نصّا. لم يجب وقد شعرت به يغيّر الموضوع هربا من الحديث عن نصوصه المقفاة، وخواطره الكثيرة الّتي أغرقني بها بعدما صارحني بأنّه يحاول تعلّم الكتابة، وقد صار له أسلوب خاص.

عاودت فتح المسجّلة، تعطّلت فجأة، وغاب ضوؤها. حاولنا استبدال بطّارياتها دون جدوى. احمرّ وجه فؤاد وظنّ أنّ مشروع التّايه قد ضاع، فطمأنته وقد سمعت

التّسجيل، وحفظت خطوطه العريضة، وقلت إنّ تعزيز النّص بالخيال أفضل من كتابته بشكل جاف، فرغم أنّ التّايه سارد جيّد، وحكى بجوارحه، وما يلزم من تفاعل وصدق، إلا أنّني قادر على كتابة هذه السّيرة بطريقة أفضل.

شعرت بالبرد يتسرّب من قدميّ، وسمعت أصواتا مختلفة لم أستطع تبيّنها. وجع في المفاصل، ورغبة في ابتلاع الرّيق دون جدوى. فمّي صار كتلة إسمنت. رأيت صورا مختلفة تنبع من شاشة بيضاء، ورؤوسا منحنيّة تصدر أنينا حادّا وتحرّك شفاها دون أن أسمع شيئا. قام نفر من الرجال والنّساء يمدّون أيديهم نحوي، فحاولت مدّ يدي لأحدهم فلم أستطع. كنت أطلب الماء بشفتين يابستين وحلق مسدود بالرّمل. لم يعد لي صوت لأنطق! أنظر إليهم جميعا يتقدّمون منّي أكثر، ويمدّون أيديهم دون أن تصلني.

وقفوا يحملون لوحات على كل واحدة اسم: التّايه السّعيد الإسكافيّ، صبيرة، هيام، يوسف، مديحة، زوليخة بنت المداني، فؤاد، وأسماء أخرى كانت أبعد من قدرتي

على النّظر والتّدقيق. دعوتها للاقتراب بأصابع تمكّنت من تحريك أحدها ببطء. كانوا يتقدّمون واحدا تلو الثاني ويشرعون في مونولوج يدوم ساعتين لكل فرد دون أن يمنحني أحد الماء.

لقد كان كابوس الأسطر الأولى لرواية التّايه الّذي شجّعني على الكتابة في زيارة مكتبتنا من الحديث إليه مطوّلا، أنا وفؤاد الّذي نجح في إقناعه بالعودة معه إلى قسنطينة، حيث سألتحق بهما بعد اكتمال العمل بوهران وقطع عزلات أدرار لنعيش معلقين كالجسور على شغف الحكاية الّتي تدخلني في حالة من الهذيان، والرّعشة حين أبادر بكتابتها.

التّايه حكى عنّي لفؤاد مطوّلا بعد الزّيارة. وأعجب بحكايا وهران والصّينيّات، وطلب كتابتها، وقال بأنّه سيسردها في سير الرجال حين يطلب منه الحكي، ودعاني إلى مزيد من التّعمّق والتّفاصيل خاصّة أنّه يعرف وهران وجمالها، كان راغبا بشدّة في التحاقي بهما بعد أن وعدته بكتابة حكاياته نيابة عنه ونشرها، وقد وجدت في مسجّلته حديثا عن أشخاص تمنيت أن ألتقي بهم وأسمع

منهم مثلما سمع وروى لأعضاء جمعية أحباب المرضى ولفؤاد عن نساء اختارهن لتشابه سيّرهنّ في خوض معارك الحياة والانتصار عليها، فصبيرة انتصرت على الحاجة، وخرجت من حياة الليل وبؤسها نحو الثّراء والكرامة، ومديحة انتصرت على السّرطان وتزوّجت رجلا أحبّته، وهيام خرجت من السّجن وأكملت قصّة حبّها وتزوّجت يوسف رغم الأهوال الّتي مرّت عليهما وقد تعرّفَتْ على التّايه عن طريق فؤاد صديق زوجها وزوليخة بنت المداني عاشت ما يكفي من حياة كما اشتهتها صاخبة بالمغامرة، وقاومت غطرسة مدينة الكآبة إلى النّهاية. وقد التقى التّايه بمئات النّساء خلال السّنين الّتي قضاها هائما بالجزائر، متجوّلا في المدن والقرى، ولم يشأ أن يحكي عن نماذجَ أخرى يراها أقلّ أهميّة من سير صبيرة، ومديحة، وزوليخة بنت المداني، وهيام، اللواتي التقى بهنّ بين قسنطينة وبرج بوعريريج وعنابة والجزائر العاصمة، وسمعهنّ بعمق خلال سنوات قليلة سبقت مرضه الّذي كاد يقضي عليه، وفي كلّ لقاء كان يحرص على التّفاصيل، وألحّ على أن تنقل قصّة فؤاد كما سمعناها

معا، وانبهر التّايه الّذي لم يعرف بخبايا كثيرة رغم عيشهما المشترك تحت سقف واحد لسنة ونصف، وانتمائهما لمدينة الكآبة الّتي كانت نقطة التّلاقي لرحلة شيقة ستستمرّ مادام التّايه يحتفظ بجذوة الحكاية، وقد كرّر على مسامعي وصيّته: **وها قد سمعت الحكاية يا حميد باسي، أنشرها وحدّث بها الآخرين حيثما رحلت، وسلّم على الّذين يكافحون في كل بقاع القهر والخوف، اعتبرها وصيّة، لقد وصيّتك. عدني أن تفعل.**

**- فعلت.**

**بليمور، صيف 2018**

**taibimohamedrafik@gmail.com**

# الفهرس


**توضيح.............................................07**

**صبيرة...........................................33**

**مديحة.......................................... 47**

**هيام.............................................89**

**التايه....................................... 130**

**فؤاد...........................................148**

**حميد باسي.................................165**